مجلة البيان ،السنة العاشرة ، العدد 89 المحرم 1416 ، يونيو 1995م

كلمة صغيرة

معاً على الطريق

إنّ معايير قياس نجاح أي مطبوعة إعلامية متعددة ، ولعل من أبرزها : قدرتها على الوصول إلى قلب القارئ وعقله بمعالجتها لهمومه وقضاياه بمنهجية علمية رزينة ، ونحسب أننا في (البيان) نحرص على ذلك حرصاً شديداً ، وقد نوفق حيناً ، ونقصر حيناً .. ويسعدنا في هذا العدد التطويري أن نواصل تقديم العديد من الأبواب المتنوعة ، فتجد : الدراسات الشرعية ، والبحوث التربوية ، والدراسات الاقتصادية ، وواقع المسلمين ، والدراسات الدعوية ، والكتابات الأدبية ، والهموم الثقافية ... وليس ذلك لإشباع ميول ورغبات جميع القراء فقط ، ولكن : لبناء المسلم الصحيحة عقيدته ، المتكامل فكره ، الواعي لواقعه ، الفاهم لرسالته ، المنطلق من التأصيل الشرعي في مواقفه ..

نقدم كل ذلك في إخراج جديد نحسبه متناسباً مع الحس الجمالي للمسلم . إننا إذ نضع بين أيديكم باكورة هذا الإخراج نؤكد على أن نجاحنا مسؤوليتكم ومسؤوليتنا جميعاً ، فتواصلكم معنا يسمعنا صدى نبضنا ، كما أن تواصل إخواننا الكتاب كل في تخصصه يشعرنا بتكاتف الجهود من أجل أداء رسالة الدعوة والتوجيه والتبصير من خلال نافذة (البيان) .. والله من وراء القصد ..

افتتاحية العدد

هل للإرهاب ملة ؟ !

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، أما بعد ..

فلقد عاشت كثير من المجتمعات العربية والإسلامية بعد الاستقلال تحت حكم

بعض الزمر العسكرية أو تحت إمرة بعض الأحزاب ذات الأيديولوجيات المشبوهة
ممن هم ثمرة مرة لمرحلة الاستعمار البغيض ، فحكموا دولهم بالحديد والنار ،
وكانوا نماذج رديئة لوأد الفكر النزيه وللعداء للدين وتغريب المجتمعات . وحينما
قيض الله للأمة الإسلامية الصحوة التي أعادت الناس إلى ربهم وجددت إيمانهم
برسالتهم الخاتمة واستجيشت الروح الإيمانية في الشعوب ؛ فأعطت خيارها
لأصحاب المبادئ الإسلامية ، نتج عن ذلك أن زلزلت قواعد العملاء ، وأقض
مضاجع سادتهم ، حتى هدد الرئيس الفرنسي السابق متران بالتدخل العسكري في
حالة تسلم الإسلاميين للحكم في الجزائر ، مما هو معروف للجميع وكان الأتباع
الفرانكفون أوفياء لسادتهم ؛ فأجهضوا واحدة من أنزه الانتخابات المعدودة في العالم
العربي ، وما زال المجتمع الجزائري يعيش في دوامة العنف والعنف المضاد نتيجة
سرقة خيار ذلك الشعب المجاهد ، ويبدو أن موقف تلك الطغمة العسكرية صار ديدنا
لكل سلطة حاكمة بأمرها حيال أي عمل نزيه ، والوقوف بكل صفاقة ضد كل توجه
إسلامي ، مع اختراعهم لإيقافه مؤامرات موهومة ودعاوى ما أنزل الله بها من
سلطان ؛ لإيقاف المد الإيماني وإسقاط مشروعيته بدعاوى الإرهاب والتطرف وما
شابهها ، وهذا في نظرنا أمر طبيعي ما دامت شريعة الله معطلة وأحكامها غير نافذة، والقضاة يحكمون بقوانين أجنبية مستوردة في محاكم استثنائية عسكرية تصدر
أحكاماً نهائية مفصلة حسب رغبة القوم وتوجهاتهم المعروفة ، ولهذا : شن الإعلام
المؤمم والأقلام المشتراة وكتّاب الفنادق ما يثير المطاعن بدون وجه حق ضد
الإسلاميين ، ويشكك حتى في نواياهم .

وما ذلك إلا ترديد أبله وتقليد أعمى إن لم نقل منقول عما تردده وسائل الإعلام
الأجنبية ضد الإسلام حيث يقولون : إنه العدو الوحيد بعد سقوط الشيوعية البائدة .

لقد أثار الغربيون بوسائل شتى ذلك الموقف ضد الإسلام ، وأعدوا الخطط

ليجعلوا من الإسلاميين دعاة الإرهاب في العالم كما حصل في تفجير (مركز التجارة
الدولية) ، ولا يزال يتذكر المتابعون لذلك الحدث الجلل أن المحامين بينوا أن وراء
تلك الجريمة أيد خفية من ضمنها شخصية يهودية عُتِّم عليها ، ولم يعد لها ذكر ،
ويبدو أن ذلك يثير شبهات تواطؤ المخابرات الأمريكية باستعمال أيادٍ مشبوهة
للشهادة ضد المتهمين .

وهذا ما أعلنه أحد هؤلاء العملاء الذي أعلن فيما بعد : أنه كان كاذباً في معظم
شهادته ، ولا شك أن ما بني على باطل ، فهو باطل ، ومع كل ذلك فقد شوهت
سيرة كثير من الإسلاميين الذين زج بأسمائهم بشهادة عميل ضائع المروءة فاقد
الضمير .

أما الحادث الأخير وهو تفجير المبنى الفيدرالي في (أوكلاهوما) ، فقد كانت
ردود الأفعال المتعجلة حياله نتيجة طبيعية للحرب المجنونة ضد الإسلام وأهله
ووصمهم كذباً وزوراً بالتطرف والإرهاب ، فقد اتهم الإسلاميون بأنهم وراءه - بعد
حدوثه بساعات معدودة - ولم يكن صدر بعد أي بيان رسمي بالإدانة ، فوجدنا مثل
نائب أوكلاهوما السابق ، والنائب الديموقراطي الحالي ديف مكيروي يصرح في
حديث لقناة ال (سي إن إن) الإخبارية : أن الاحتمال الأكبر هو أن المشتبه بهم من
الراديكاليين الإسلاميين ! وضربت على هذا الوتر فعاليات أمنية وإعلامية أمريكية ،
مما أدى إلى حرب قذرة ضد المسلمين في أمريكا ، جعلتهم يعيشون أياماً قلقة حزينة
نالوا فيها من المضايقة والإرهاب الكثير وبخاصة في المدارس والمراكز الإسلامية
والتهديدات بالهواتف ، الأمر الذي جعل الكثيرين يقبعون في بيوتهم خوفاً من ردود
الأفعال التي صنعها الإعلام المعادي .. ثم يأبى الله إلا أن تظهر الحقيقة بعد أيام
معدودات ، فإذا بالمجرم الحقيقي إنما هو أصولي نصراني أمريكي ، فجّر ذلك
المبنى في ذكرى إحراق جماعة (ديفيد قورش) الأصولية المتطرفة ، التي انتحرت

مع زعيمها حرقاً حينما حاصرهم البوليس الفيدرالي في العام قبل الماضي ، هذه
الجماعة وغيرها كثير : هي عينات من التطرف والإرهاب الموجود في الغرب ،
وهي محسوبة سياسيّاً على اليمين الأمريكي العنصري . والتي لها ميلشياتها
العسكرية ، والتي تعلن نازيتها وعنصريتها على رؤوس الأشهاد .
وهناك أيضاً تطرف شرقي ، هو ما فعلته جماعة (أوم) اليابانية ، الذين ثبت
تواطؤهم بإلقاء غاز السارين السام في أنفاق مترو طوكيو ، وأدى إلى وفاة واختناق
الكثيرين ، وتداعياته اللاحقة ما تزال حديث الساعة ، فما بالك بتطرف وإرهاب
الصرب في حربهم الضروس ضد مسلمي البوسنة ، وتطرف وإرهاب السيخ
والهندوس ضد مسلمي الهند وكشمير ، وتطرف وإرهاب أعداء المسلمين في كل من
(طاجيكستان) و (الفلبين) و (الشيشان) و (بورما) والتطرف الصهيوني في فلسطين
المحتلة المدعوم من الغرب والشرق معاً . وغير ذلك كثير .
لم يكن الإسلام في يوم من الأيام لا قديماً ولا حديثاً دين إرهاب ، بل حتى في
الحروب : كان يأمر بالرفق وعدم قتل النساء والشيوخ والأطفال والرهبان ممن لا
يد له في قتال المسلمين وإيذائهم ، وهذا ما تطرقت له باستفاضة كتب الحديث والفقه
في أبواب الجهاد مع حث الإسلام على العدالة مع الناس حتى عند الاختلاف معهم
في الدين ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ
أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إلَيْهِمْ إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة : 8] ؛ يقول العلامة
ابن سعدي في تفسيره لهذه الآية : أي : لا ينهاكم الله عن البر والصلة والمكافأة
بالمعروف والقسط للمشركين من أقاربكم وغيرهم حيث كانوا بحال : لم ينصبوا
لقتالكم في الدين والإخراج من دياركم ، فليس عليكم جناح أن تصلوهم ، فإن صلتهم
في هذه الحال لا محذور فيها ولا تبعة .
فكيف يُزْعَمُ أن الإسلام يدعو إلى مثل تلك الأعمال الإرهابية التي تتنافى

والروح الإسلامية المشبعة بالقسط والعدل والرحمة .
وبمناسبة عقد (مؤتمر الأمم المتحدة التاسع لمنع الجريمة ومعاملة المجرمين)
الأخير ؛ يحق لنا في هذا المقام أن نتساءل : ترى ماذا سيناقش هذا المؤتمر ؟ ، وما
هي توصياته[*] ؟ وهل سيبحث حقيقة الإجرام والمجرمين فعلاً ، ومنهم المجرمون
الحقيقيون الذين لم تأخذهم بالمؤمنين أي رحمة ؟ أين محاكمة قادة الإجرام العالمي
الذين أرهبوا ونكلوا بالشعوب الإسلامية في فلسطين والبوسنة والهرسك والشيشان
مثلاً وانتهكوا الدين والحرمات ، وضربوا بقرارات الأمم المتحدة عرض
الحائط ؟ .. هل سيدانون ويحاكمون على الملأ ليعرف
الجميع جرائمهم ، كما حوكم وأدين مجرمو الحرب العالمية الثانية ، ويكلف البوليس الدولي بالقبض عليهم في أقرب فرصة . أم إن المسألة ليست سوى مجرد جعجعات معروفة ، وستوظف لمصالح معينة ، وسيكون الضحية والمدانون دائماً هم المسلمين وبخاصة الدعاة منهم الذين يطاردون تحت ستار محاربة الإرهاب والتطرف ؟ ، وهذا هو المتوقع ، وما علمنا في مؤتمرات هيئة الأمم إلا تأكيداً لهيمنة الدول الكبرى على دول العالم الإسلامي ، وإطلاقاً لأيدي الدول البوليسية في محاربة شعوبها مما نلمسه في واقع كثير من الدول العربية .
إن مما ينبغي أن يفطن له وأن يعيه كل الناس : أن الإرهاب الحقيقي إنما هو
إرهاب الشعوب في أن تدين لربها ، وإرهابها من أن تدعو لتحكيم شريعته ،
وإرهابها من أن تدلي برأيها فيما يراد لها من تغريب لمجتمعاتها ، ومحاولة تركيعها
قسراً لأعدائها ، وإرهابها في أن تعلن هويتها الإسلامية ، بل وحتى التدخل
الخارجي في كثير من دول العالم الثالث كما حصل من قبل بعض الدول الكبرى هو
إرهاب بمعنى الكلمة . فإلى متى يلمز الإسلاميون بالإرهاب ، والإرهابيون حقّاً
غيرهم ؟ !
﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾

(*) كتبت الافتتاحية في بداية افتتاح المؤتمر .

الأسباب الواقية من لبس الحق
الحلقة الأخيرة

بقلم :عبد العزيز بن ناصر الجليل

بعد أن تبين لنا خطورة لبس الحق بالباطل من خلال الصور التي أوردناها في السابق ، وما ينتج عنها من الضلال والانحراف الذي يورث العواقب الوخيمة في الدنيا والآخرة ، بعد ذلك : يحق لنا بل يجب علينا أن نسأل : كيف النجاة من ذلك الخطر ؟ وما هي الأسباب الواقية منه ؟ وللإجابة على ذلك : نستعرض أسباب التباس الحق بالباطل ؛ فمنها ينطلق العلاج ، وبضدها تتميز الأشياء .

فقد مر بنا أن تلك الأسباب لا تخرج عن ثلاثة أمور :

1- شبهة تسببت في أخذ الباطل على أنه الحق ، وأصل هذا : الجهل .

2- شهوة تسببت في أخذ الباطل وترك الحق عن شهوة وضعف واعتراف بالخطأ .

3- شهوة وشبهة نتج عنهما أخذ الباطل وإظهاره في صورة حق عن هوى ومغالطة استناداً إلى شبهة يعلم صاحبها أنها لا تصلح للاستدلال .

وبعد هذه المقدمة التي لابد منها بين يدي الأسباب الواقية من اللبس والتلبيس. يمكن تفصيل وبيان الأسباب الواقية من لبس الحق بالباطل فيما يلي :

1- علم وبصيرة بدين الله (عز وجل) وشرعه ، وعلم وبصيرة بما يضاد دين الله (سبحانه) وشرعه ؛ فإذا تحقق هذا الأمر : فإن الاستبانة لسبيل المؤمنين وسبيل المجرمين قد تحققت ، وبهذا : فلا مجال للشبهة هنا أبداً ؛ لانتفاء الجهل الذي منه تنتج الشبهات المؤدية إلى اللبس والتلبيس ، وفي هذا يقول الإمام ابن القيم (رحمه الله تعالى) : فتنة الشبهات تُدفع باليقين ، وفتنة الشهوات تُدفعُ بالصبر ، ولذلك جعل (سبحانه) إمامة الدّين مَنوطةً بهذين الأمرين ، فقال : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : 24] ، فدلّ على أنه بالصبر

واليقين تُنالُ الإمامة في الدين ، وجمع بينهما أيضاً في قوله : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر : 3] ، فتواصوا بالحق الذي يَدْفَعُ الشبهات ، وبالصبر الذي يَكُفّ عن الشهوات [1] .

2- الصبر وتقوى الله (عز وجل) :

فبالصبر وتقوى الله (سبحانه) تدفع الشهوة وينتصر الإنسان على هواه ؛ لأنه قد يحصل للإنسان البصيرة والعلم بدين الله (عز وجل) ، ويتبين له الحق من الباطل ، ولكن إذا لم يكن لديه الصبر عن شهوات النفس ، والتقوى التي تحجزه عن مخالفة الصواب : فإنه يضعف ويقع في المخالفة مع علمه بذلك ، أما إذا اجتمع العلم والبصيرة مع التقوى والديانة فإنه إذا بان الحق ولاح : لم يكن أمام من هذه صفته إلا الإذعان والتسليم والانقياد ، وذلك لانتفاء الشبهة والشهوة في حقه ، وإلى هذا أشار ابن القيم في النقل السابق بقوله : إن فتنة الشبهات تدفع باليقين ، وفتنة الشهوات تدفع بالصبر ولكن إذا ضعف الصبر والتقوى ، ووجدت الغفلة عن الآخرة، وتنوسِيَ الوقوف بين يدي الله (عز وجل) ، وصاحب ذلك شيطان يزين ، ودنيا تتعرض بفتنها : فالغالب عدم السلامة . ولكن المخالف للحق هنا : إما أن يكون لديه بقية تقوى وخوف من الله (عز وجل) فيعترف بذنبه ، ويستغفر منه ويتوب ، أو يكون (عياذاً بالله) قد رقّ دينه وسيطر عليه هواه فأخذ يلتمس مبرراً لباطله ، ويبحث هنا وهناك عن شبهة يظهر بها باطله ومخالفته في قالب الحق والموافقة لدين الله ، وهذا هو الخداع والتلبيس ، ولا علاج له إلا بتقوى الله (سبحانه) ، واليقين بالرجوع إليه .

نعم .. إنه لا يمنع من الوقوع في الباطل بعد العلم والبصيرة ، ولا يمنع من تلبيسه على الناس إلا الإيمان باليوم الآخر إيماناً جازماً ويقيناً صادقاً ، وإن لم يتذكر العبد هذا اليوم ويحسب له حسابه : فلن يفيده في ذلك العلم والبصيرة ؛ فكم من عالم

بالحق تنكب عنه وخالفه ، أما إذا انضم إلى العلم والبصيرة : الصبر والتقوى
والخوف من الحساب يوم القيامة ، فإن الشهوة ستنقمع وإن الهوى سيُغلب ، وعندها: يختفي اللبس والتلبيس والخداع
والمغالطة في دين الله (عز وجل) ؛ يقول الإمام
ابن القيم (رحمه الله) في معرض رده على المحتالين على شرع الله بالحيل الباطلة :
فحقيق بمن اتقى الله وخاف نكَاله أن يحذر استحلال محارم الله بأنواع المكر
والاحتيال ، وأن يعلم أنه لا يخلصه من الله ما أظهره مكراً وخديعة من الأقوال
والأفعال . [2] .
ويقول سيد قطب (رحمه الله) في ظلال قوله (تعالى) : ﴿ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ
لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأعراف : 169] :
نعم .. إنها الدار الآخرة ! إن وزنها في قلوب الذين يتقون هو وحده الذي
يرجح الكفة ، وهو وحده الذي يعصم من فتنة العَرَض الأدنى القريب في هذه
الدنيا .. نعم ، إنها هي التي لا يصلح قلب ولا تصلح حياة إلا بها ؛ ولا تستقيم نفس ولا تستقيم حياة إلا بملاحظتها [3] .

أسباب أخرى مساعدة :

وبعد ذكر السببين الرئيسين للوقاية من اللبس والتلبيس ، وهما : البصيرة في
الدين الذي تدفع به الشبهة ، والصبر والتقوى اللذان تدفع بهما الشهوة : نذكر فيما
يلي بعض الأسباب المساعدة لتثبيت السببين السابقين :

3- محاسبة النفس ومجاهدتها وتحصينها بالذكر والدعاء والعمل الصالح :

حيث لابد للمسلم من محاسبة دائمة للنفس ، ومجاهدة لها في تطويعها لشرع
الله (عز وجل) والحذر من الشيطان الذي لا يفتأ يوسوس ويزين لها الباطل ، فإن لم
يتفقد كل منا نفسه ، ويسد على الشيطان مداخله المتعددة ؛ فإن النفس تكون على
خطر أن تنساق مع شهواتها وهواها ، فيحصل من جراء ذلك : اللبس والتلبيس
والتضليل والمغالطة ، إما بعلم أو بجهل ، وإن مما يؤكد أهمية المحاسبة الدائمة
واليقظة الشديدة للنفس ما يحصل من كثير منا في يومه أو غده من المغالطات

والمعاذير الكاذبة والتبريرات الغامضة ، سواء أكان ذلك مع النفس أو مع الناس ،
ولكنها تكثر وتقل حسب التقوى وقوتها أو ضعفها في القلب ، مع أنه يوجد من
الدعاة والمصلحين نماذج فريدة في إخلاصها وصدقها وبعدها عن المداهنة والمغالطة
والتلبيس ، نسأل الله لهم الثبات ، ونسأله (سبحانه) للجميع الصدق في المقاصد
والأقوال والأعمال .

ومن الأسباب القوية التي يُتحصن بها من الشيطان ووساوسه : ذكر الله (عز
وجل) في أحوال اليوم والليلة ؛ فكلما كان اللسان رطباً بذكر الله (تعالى) والقلب
يواطؤه في ذلك : كلما كان الشيطان بعيداً ولا يستطيع اقتحام الحصن ؛ لأن ذكر الله
(سبحانه) يحرقه ويمنعه من الدخول ، ولكن ما إن يغفل العبد عن ذكر الله (تعالى)
حتى يكر مرة أخرى للوسوسة ، فهذا دأب الشيطان في كره وفره على القلب ، فكلما
ذكر العبد ربه خنس وإذا غفل وسوس .

ومن الأسباب الواقية من التباس الحق بالباطل : مجاهدة النفس في عمل
الصالحات والإكثار منها من غير إفراط ولا تفريط ، كما جاء في الحديث القدسي
الذي منه : وما تقرب إليّ عبدي بأحب مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب
إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر
به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي عليها .. الحديث [4] فمن كان يسمع
ويبصر ويمشي ويبطش بنور الله وهداه : فإنه لن يخطئ أبداً ؛ قال (تعالى) :

 وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ المُحْسِنِينَ [العنكبوت : 69]

وبالضد من ذلك فإن كثرة الذنوب من أسباب الضلال والزيغ ؛ قال (تعالى) :

 ... فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ... [الصف : 5]

4- مصاحبة أهل العلم والورع :

إن الجليس يتأثر بجليسه وصاحبه ، سواءً أكان ذلك في الخير أو الشر ، وذلك
عن طريق المؤانسة والمشابهة والقدوة ، وعليه : فإن من الأسباب المانعة من

الانحراف ولبس الحق بالباطل : الجلوس مع أهل العلم والتقوى ومصاحبتهم
ومشاورتهم ، لأنه بالعلم الذي عندهم تحترق الشبهات ، وبالتقوى والورع لديهم
تحترق الشهوات ، وبذلك يُسد على الشيطان البابان الرئيسان اللذان يدخل منهما
ليلبس على النفس ويزين لها التلبيس ، والعكس بالعكس : ما إن يصاحب المرء
أهـل الجهل والجدال ومن لم يؤتوا حظّاً من التقوى والورع إلا ويتأثر بهم وينطبع
بأخلاقهم وتشتبه عليه الأمور لضعف العلم والبصيرة ، أو يتعمد ترك الحق وتعميته
على الناس لضعف التقوى والصبر عن الشهوات ، وقد روي عن عمر بن الخطاب
(رضي الله عنه) قوله : لولا ثلاث لما أحببت البقاء : لولا أن أحمل على جياد
الخيل في سبيل الله ، ومكابدة الليل ، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى
أطايب الثمر .

ولعل مما يدخل في هذا السبب : الإكثار من قراءة أخبار أهل العلم والتقوى
والجهاد من أنبياء الله الكرام وصحبهم الأجلاء والتابعين لهم بإحسان ؛ ففيهم الأسوة
والقدوة والخير كله .

5- الحذر من الدنيا ، وعدم الركون إليها :

إن من أعظم أسباب الانحراف عن الحق والوقوع في الانحراف والمخالفات :
هذه الدنيا الغرارة ؛ فكلما انفتحت على العبد كثرت شبهاتها وانساق مع شهواتها
المختلفة ، وعندما يرد ذكر الدنيا فإنه يقصد بها كل ما أشغل عن الآخرة من متعها
المختلفة التي أجملها الله (عز وجل) في قوله (سبحانه) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ
وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ
تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ
بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ [التوبة : 24] .

والانغماس في الدنيا وترفها وملذاتها ينتج عنه : غفلة عن الآخرة ، وتشتت
للذهن والقلب ، وإعمال الفكر في الاستزادة منها ، والخوف على فواتها .. وهذا

يؤدي إلى قسوة القلب ورقة الدين ، ومن هنا : تبدأ النفس في الاستجابة لتزيين
الشيطان ، وتثور الشبهات والشهوات في القلب ، والذي ينشأ منهما : الكذب ،
والتدليس ، والتلبيس ، والطمع ، والجشع .. وبخاصة في مثل عصرنا الذي نعيش
فيه ، والذي كثرت فيه المعاملات المحرمة والشبهات ، ولا عاصم من أمر الله إلا
من رحم ، ولذا : كان الأولى لمن أراد لنفسه السلامة من الدنيا وشبهاتها وشهواتها :
أن يتخفف منها قدر الاستطاعة وأن يرضى منها بالقليل ؛ لأن هناك تناسب طردي
وخاصة في زماننا هذا بين كثرة الدنيا وكثرة الوقوع في الشبهات والشهوات
المؤديات إلى التدليس والتلبيس .

6- النصح للأمة والحذر من عاقبة التلبيس والتدليس عليها :

إن الشعور بواجب النصح للأمة يقتضي من المسلم وبخاصة الداعية إلى الله
(عز وجل) أن يبين الحق لأمته ، ويعري الباطل ويكشفه لها ، ولا يجعله ملتبساً
عليها فتضل ؛ لأن الذي يرى أمته تُضلل ويُلَبّس عليها دينها فتعيش في عماية من
أمرها ، ثم يتركها وهو يعلم الحق من الباطل إن مَن هذا شأنه : يعتبر خائناً لله
ورسوله وللمؤمنين ، وإن الله (عز وجل) سائله يوم القيامة عن علمه : فيم عمل به؟، وهذا فيمن رأى التضليل والتلبيس فلم يُحذّر منه ولم يكشفه للناس ، فكيف بمن
باشر التلبيس والتضليل بنفسه (عياذاً بالله) ؟ إن هذا بلا شك أكثر خيانة من سابقه ،
وإن وزر وضلال من ضلله بتلبيسه هذا سيحمله فوق ظهره يوم القيامة من غير أن
ينقص من أوزار من ضللهم شيء . والحاصل : أن شعور المسلم بإثم وعاقبة
التلبيس أو السكوت عليه : من أقوى الأسباب المانعة من الوقوع فيه إن كان في
القلب حياة وخوف من الله (سبحانه) والدار الآخرة ، لأن من كان في قلبه المحبة
الحقيقية لهذا الدين وأهله : لا يمكن أن يرى التضليل والتلبيس من المفسدين
المنافقين ثم يرضى لنفسه السكوت والوقوف موقف المتفرج ، بل لن يقر له قرار

ويهدأ له بال حتى يساهم قدر استطاعته في إبانة سبيل المؤمنين وإسقاط اللافتات
الزائفة عن سبيل المجرمين وتعرية باطلهم وخداعهم كما مر بنا في صور التلبيس ،
وعندها : تعرف الأمة من توالي ومن تعادي ، وعندها : تتميز الصفوف ويتميز
المؤمن من المنافق ، وكل هذا يحتاج إلى تضحيات باهظة ، لكنها رخيصة في
سبيل الله (عز وجل) لأن نصر الله (جل وعلا) الموعود لا يتم بدونها .

وبعد :

فهذا ما يسره الله (عز وجل) في هذه العجالة حول هذا الموضوع المهم الذي
يمس المسلم في عقيدته وأخلاقه ومجتمعه ، ولا أزعم أنني أحطت بجوانبه كلها ،
ولكن حسبي إثارة هذا الموضوع والتذكير به لعل فضيلة العلماء الكرام والإخوة
الدعاة يكملون ما نقص منه ، ويقوّمون ما اعوج منه . وأحب أن أنبه : أن ما ذكرته
من صور التلبيس ذكرته على سبيل المثال لا على سبيل الحصر ، فالصور كثيرة
وكثيرة وبخاصة في زماننا هذا الذي قلّ فيه العلم والورع ونجم فيه الجهل والنفاق .

وفي خاتمة هذه المقالات : أوصي نفسي الأمارة وأوصي إخواني المسلمين :
بأن يتفقد كل منا نفسه ، ويبحث عن هذا المرض الخطير فيها فإذا وجدنا شيئاً من
ذلك وسنجد فعلينا التوبة الصادقة من هذا المرض ، ولنبادر بقطع جذوره قبل أن
يستفحل ، ولا نُسوّف في ذلك أبداً ؛ لأن التسويف وطول الأمل من عمل الشيطان
وتلبيسه .

والله أعلم ، وصلّ الله على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(1) إغاثة اللهفان : ج2 ، ص167 .
(2) إعلام الموقعين : ج3 ، ص214 .
(3) في ظلال القرآن : ج3 ، ص387 .
(4) البخاري : كتاب الرقائق ، ح 6502 .

مقال

العلاقة بين العلم والخلق
في الفكر التربوي الإسلامي

بقلم : د .محمد عز الدين توفيق

هذا الموضوع من الموضوعات المرتبطة بالتراث التربوي والتعليمي عند المسلمين ، وفي أي تراث لابد أن نجد الجوانب المشتركة ونجد الخصوصيات ، وفي التراث النفسي عند المسلمين وفي تطبيقاته في علم التربية هناك أمور تقنية ومنهجية تُدرس في إطار علمي محايد ، وأمور أخرى تختص بها الحضارة الإسلامية وتُدرس في إطار المرجعية الفكرية والعقدية لهذه الحضارة وهي الإسلام .

هذه الأمور المشتركة هي الأفكار والآراء التربوية ذات الطابع التقني والإجرائي ، وهذه تخضع للاختبار العلمي التجريبي ، فلا يمكن أن نرجع إلى الوراء ؛ فنجمد على آراء تربوية تم تجاوزها علميّاً ، ونكون في تمسكنا بها معتمدين على مجرد انتسابها إلى التراث ، فاعتماد المنهج التجريبي لأجل الوصول إلى أحسن الطرائق وأفضل الأساليب التعليمية منهج إسلامي أصيل ، والتخمينات الذاتية إذا لم تمر بمرحلة التجربة تبقى فروضاً قابلة للصواب والخطأ معاً ، وفي التراث أمثلة لهذه الآراء التربوية التي أصبحت تتمتع بقيمة تاريخية فقط لكنها متجاوَزة من الناحية العلمية .

لكن الذي يجد امتداده في الحاضر واستمراره في المستقبل : هو تلك القيم التي تميز حضارتنا رغم التطور الذي عرفته النظريات التربوية في العصر الحاضر ، وهذه القيم يجب التعامل معها بشكل مختلف ، فإذا كنا في مجال النظريات نحتكم إلى المنهج العلمي القائم على وضع الفروض والتحقق منها وفق مراحل مشتركة بين الباحثين ، فإننا في مجال القيم والأخلاق نستلهم مبادئ ديننا ونحتكم إلى العلم الثابت الذي جاءنا من عند الله .

والعلاقة بين العلم والخلق هي من هذا المجال الثاني ، فأخلاقنا متميزة داخل قاعة الدرس ، وفي الشارع ، وفي المحكمة ، وفي المصنع ، وفي الحافلة ، وفي كل

مؤسسة من مؤسسات المجتمع .
غير أن استلهام التراث في تحديد العلاقة بين العلم والخلق لا يعني التسليم بكل ما جاء فيه عنها ، فالتراث يُذكر ويُقصد به : كل ما وصل إلينا من الآباء والأجداد ، وهذا معنى عام يشمل الكتاب والسنة ، كما يشمل الكتب والمخطوطات التي ضمت علم المتقدمين وأدبهم وتاريخهم ، فإذا استعملنا هذا المعنى العام للتراث فيجب أن نميز فيه بين الجانب الإلهي والجانب البشري ، وذلك حتى تختلف طريقة تعاملنا مع ما ورد في هذا التراث عن العلاقة التي نحن بصدد دراستها ، ففي الوقت الذي سيكون الوحي أو الكتاب والسنة معياراً ثابتاً تعرض عليه كافة الأخلاق التي ألح عليها العلماء في مجال العلم والتربية ، ستكون اجتهاداتهم في تنزيل هذه الأخلاق على الواقع محل استفادة واستئناس لاختلاف الظروف والعصور .

إن الحديث عن العلاقة بين العلم والخلق في ظل الحضارة الإسلامية وثيق الصلة بمشروع التأصيل الإسلامي للعلوم الإنسانية بعامة ، هذه العلوم التي ليست لها صبغة إسلامية ، وتحتاج في البيئة الإسلامية إلى وجهة تميزها عن وجهتها السائدة حالياً في الغرب .

نحن بحاجة إلى ربط الصلة بين آخر ما توصل إليه البحث العلمي في علم النفس وتطبيقاته في التربية وبين ما يزخر به تراثنا النفسي والتربوي .

إن الإنجازات التي حققها علم التربية الحديث إنجازات لا تنكر ، ويكفي أنه أسس الأساليب التربوية على الدراسة التجريبية والبحوث الميدانية ، بعيداً عن التخمينات النظرية والمعلومات المكتبية ، لكن هذه الإنجازات لم تملأ الفراغ الخاص بالقيم ، لأن العلم التجريبي لا يستطيع أن يملأه ، وإنما يملؤه الدين أو ما يقوم مقامه من فلسفات وضعية بالنسبة للعلمانيين .

ولقد تعرضت العلاقة بين العلم والخلق للاضطراب في ظل النظريات

التربوية الغربية ، وأحدثت ثنائية التعليم وعلمانيته قطيعة بينهما في الحضارات
الغربية ، فأصبحت الأخلاق موضوعاً من موضوعات الدراسة ، بينما صارت بقية
العلوم تدرس دراسة تخصصية محضة ، واعتبرت الأخلاق مسألة شخصية ، وتم
فصل الجوانب المعرفية عن الجوانب الأخلاقية ، وأصبحت السياسات التعليمية تهتم
بالجانب التقني والإداري ، فالمهم هو تكوين أطر متخصصة لسد حاجات البلد ، ولا
يهم الجانب الأخلاقي في هذا التكوين ، ونحن نريد أن تعود إلى هذه العلاقة حيويتها، كما كانت في ظل الحضارة
الإسلامية ، لأن التكوين التقني أو التخصصي العلمي
المعزول عن التربية الأخلاقية لن يعطي الشخصية المنشودة لبناء الأمة وخدمة
أهدافها .

لقد تعلم المسلمون من دينهم : أنه لتحقيق الشخصية الإسلامية المنشودة لابد
من الاهتمام أثناء التربية بالجسم والعقل والروح ، ولأجل هذه النظرة المتكاملة لم
يكن العلم نظريّاً فحسب ، ومهما تكن قيمة المعلومات التي يحصلها الإنسان فلابد
لصاحب العلم كيفما كان اختصاصه أن يلتزم بالقيم الخلقية التي يفرضها العلم على
أهله .

ونقصد بالعلم هنا : جميع العلوم التي يدرسها الإنسان سواء أكانت دينية
مصدرها الوحي أو دنيوية مصدرها العقل ، كما نقصد بالخلق : الجانب الذي يقابل
العلم ، وهو يرادف العمل أو التطبيق .

وفي المجال الذي نتحدث عنه هناك ثلاثة أنواع من الأخلاق يُطالبُ بها أهل
العلم :

- أخلاق علمية : يتخلق بها المرء في فترة التعلم والدراسة .

- أخلاق مهنية : يتخلق بها عندما يمارس اختصاصه سواء أكان تعليماً أو
غيره .

- أخلاق اجتماعية : يتخلق بها في الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه .

أمثلة تؤكد العلاقة بين العلم والخلق
في الفكر التربوي الإسلامي :

تكثر الأمثلة التي تجسد اهتمام المسلمين بهذه العلاقة ، نذكر بعضها :

*** المثال الأول : الوصية التي يوصي بها الأستاذ تلميذه قبل عودته إلى بلده وجلوسه للتدريس والفتيا ، أو ما يمكن تسميته بالتوجيهات التربوية عند التخرج ، وكلها كانت وصايا أخلاقية تحث على الأمانة والتواضع وفعل الخير ونشر العلم والإخلاص لله ، ومما ورد في وصية أبي حنيفة لتلميذه يوسف بن خالد السمتي : إذا دخلت البصرة واستقبلك الناس وزاروك وعرفوا حقك ، فأنزل كل رجل منهم منزلته: أكرم أهل الشرف ، وعظم أهل العلم ، ووقر الشيوخ ، ولاطف الأحداث ، وتقرب من العامة ، ودارِ التجار ، واصطحب الأخيار ، ولا تتهاون بالسلطان ، ولا تقولن من الكلام ما ينكر عليك في ظاهره ..** [1] **.**

*** المثال الثاني : الإجازات التي كان يجيز بها العلماء تلاميذهم ، وما كانت تتضمنه من الأمر بتقوى الله ولزوم طاعته والقيام بحق العلم عملاً ونشراً ، فمن العلماء من كان يفصل شروطه التي يجيز على أساسها طلابه ومن سأله الإجازة من أهل العلم ، ومنهم من كان يحيل على شروط العلماء المتعارف عليها ، كما أجاز ابن خلدون لجماعة من علماء مصر أثناء مقامه بها وفيهم الإمام ابن حجر العسقلاني فكتب في إجازته : الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، أجزت لهؤلاء السادة ، والعلماء القادة ، أهـل التحصيل والإفادة والفضل والإجادة ، والإبداء في الكمال والإعادة ، جميع ما سألوه ورجوه من الإجازة وأملوه ، على شروطه المعتبرة عند العلماء ، وأخبرهم أن مولدي عام اثنين وثلاثين وسبعمئة ، والله (تعالى) ينفعنا وإياهم بالعلم وأهله ، ويجعلنا من سالكي سبله ، وكتب بذلك عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، منتصف شعبان عام سبعة وتسعين وسبعمئة** [2] **.**

لقد كان الانتقال من مرحلة التلقي والتلمذة إلى مرحلة التدريس والمشيخة مرحلة حاسمة لها هيبتها ، ولذلك : حفها العلماء بشروط علمية وأخلاقية صارمة .

ورغم أن الإجازات لم تكن في أول الإسلام لقرب العهد بالنبوة ، ولشيوع الأمانة ، لكنها ظهرت بعد الابتعاد عن عصر النبوة ، وطالت سلسلة الإسناد لضبط الرواية ، والأخذ عن الثقات ، والإجازة : عبارة عن إذن يمنحه المجيز لشخص آخر يسمى مُجازاً ، يأذن له فيه أن يروي عنه رواية قرآنية أو أحاديث نبوية أو أشعاراً أو فقهاً أو لغةً أو غير ذلك ، وقد يكون المستجيز طالباً دَرَسَ عند الشيخ المجيز ، وقد لا يكون ، لكن يشترط في الإجازة أن يكون المجيز عالماً بما يجيز به، ثقة في دينه وروايته ، معروفاً بالعلم ، وأن يكون المستجيز من أهل العلم وطلابه حتى لا يوضع العلم في غير أهله .

* **المثال الثالث :** موقف الأسرة والآباء من هذه العلاقة ، وحرصهم على استفادة أبنائهم من التعليم : العلم والخلق جميعاً ، ويظهر هذا في وصاياهم للمعلم عند تسليمه الولد ، وقد أوصى عبد الملك بن مروان معلم ولده فقال له [3] : علِّمهم الصدق كما تعلمهم القرآن ، وجنبهم السفلة ؛ فإنهم أسوء الناس بدعة ، وأقلهم أدباً ، وجنبهم الحشم فإنهم لهم مفسدة ، وأحف شعورهم تغلظ رقابهم ، وأطعمهم اللحم يقووا، وعلمهم الشعر يمجدوا وينجدوا ، ومرهم أن يستاكوا عرضا ، ويمصوا الماء مصّاً ولا يعبوه عبّاً ، وإذا احتجت أن تتناولهم بأدب فليكن ذلك في ستر ، لا يعلم به أحد من الحاشية فيهونوا عليه .

فهذه الوصية اشتملت على توجيهات صحية وأخرى علمية وأخرى أخلاقية تبعاً لنظرة الإسلام إلى المكونات الثلاثة : الجسم ، والعقل ، والروح .

* **المثال الرابع :** حضور الثقافة الدينية بقوة في المراحل الأساسية للتعليم ، ثم في المراحل التالية ، وشعار ذلك : البداية التي كان سيبدأ بها الطفل بعد تعلم القراءة والكتابة ، وهي حفظ القرآن الكريم ، يقول ابن خلدون : تعليم الولدان القرآن الكريم شعار من شعائر الدين أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أقطارهم ، لِمَا يسبق إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده بسبب آيات القرآن ومتون

الأحاديث ، وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعد من
الملكات [4] .

ورغم أن العلوم التي كانت تدرس في المدارس والجامعات الإسلامية لم تكن
جميعاً علوماً دينية ، ولكن المبدأ السائد كان هو البدء بهذه العلوم الدينية وإتقانها قبل
التخصص في غيرها ، لأنها قاسم مشترك يحتاج إليها كل طالب كيفما كان
التخصص الذي سيختاره فيما بعد ؛ يقول عمر بن عتبة لمعلم ولده : ليكن أول
إصلاحك لولدي إصلاحُك لنفسك ، فإن عيونهم معقودة بك ، فالحسن عندهم ما
صنعت ، والقبيح عندهم ما تركت ، علمهم كتاب الله ، ولا تُمِلّهم فيه فيتركوه ، ولا
تتركهم منه فيهجروه ، وروّهم من الحديث أشرفه ، ومن الشعر أعفه ، ولا تنقلهم
من علم إلى علم حتى يُحكموه ، فإن ازدحام الكلام في القلب مشغلة للفهم ، وعلمهم
سنن الحكماء وجنبهم محادثة النساء ، ولا تتكل على عذر مني فقد اتكلتُ على كفاية
منك [5] .

* **المثال الخامس :** هو ارتباط العلم بالمسجد ، وما يرمز إليه المسجد من
علاقة بين العلم والعمل ، والإيمان والطاعة ، ورغم أن الكتاتيب والمدارس قد
أنشئت فيما بعد مستقلة عن المساجد ، ولكن المسجد بقي محور الدراسة ، فكانت
المدارس ملحقة به ، وإذا كانت كبيرة كانت تضم المسجد ضمن مرافقها ، وكان
جزءٌ من وقت العالِم وطلابه يمضى في المسجد .

* **المثال السادس :** هو الرحلة في طلب العلم [6] ، فقد كانت الرحلة بدوافعها
وآدابها تأكيداً للعلاقة بين العلم والخلق ، وذلك لأن الطلاب لم يكونوا يَقنعون بأخذ
العلم من الكتب والصحف ، فكانوا يرحلون لملاقاة الشيوخ ، حتى يأخذوا عنهم العلم
والخلق ، ويستفيدوا منهم العلوم النظرية بالقراءة عليهم ، والأخلاق العملية
بالاحتكاك بهم ومجالستهم والاستماع إلى نصائحهم وتوجيهاتهم ، كما كان العلماء

يدركون هذه المهمة المزدوجة ، ولم يكونوا يرون أنفسهم حملة أسفار وعلوم فقط .

هذه أمثلة لقوة العلاقة التي كانت تصل بين العلم والخلق في الفكر التربوي للمسلمين .

وبما أن طرفي العلاقة هما الأستاذ والتلميذ ؛ سنأخذ كلاً منهما نموذجاً نرى من خلاله كم كان حجم هذه العلاقة بارزاً عند علماء المسلمين .

الأستاذ :

1- النية التي تقف وراء طلب العلم والاشتغال بالتدريس : لقد كثر التأكيد على الإخلاص لله (تعالى) عند تحصيل العلم وتبليغه حتى لا يفقد الأخلاق التي تكون معه ومنها : العزة ، والاستعلاء بالإيمان ، وقول الحق ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحتى يكون طلب العلم لله وتبليغه لله : لابد أن يتخلق العالم بالزهد والقناعة والأخذ من الدنيا بقدر الحاجة ، فالعالم إذا استولت عليه الأفكار المادية انعكس ذلك على عطائه العلمي ، وانصرف عقله إلى التملك والاستهلاك ، وصار اشتغاله بالعلم حرفة جافة هدفها الأجرة التي يحصل عليها آخر الشهر ، ولم يكن المقصود عندهم بالإخلاص لله عند تحصيل العلم وعند التصدر لتدريسه ألا يأخذ شيئاً يستعين به على الدراسة أثناء الطلب أو يأخذ كفايته وكفاية عياله أثناء التدريس ، بل كانت المنح وكانت الأجور ، ولكنها لم تكن هي الدافع الأول وراء الحركة العلمية ، ولم تكن هي سبب تلك التضحيات التي بذلها الطلاب في دراستهم وذلك الإخلاص الذي عرف به الشيوخ في عملهم .

2- الأخلاق العامة التي يمشي بها الأستاذ بين الناس : يقول بدر الدين بن جماعة : أن يحافظ على القيام بشعائر الإسلام وظواهر الأحكام : كإقامة الصلاة في المساجد ، وإفشاء السلام للخواص والعوام ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والصبر على الأذى بسبب ذلك .. ، ولا يرضى من أفعاله الظاهرة والباطنة بالجائز منها ، بل يأخذ نفسه بأحسنها وأكملها ، فإن العلماء هم القدوة وإليهم المرجع في

الأحكام ، وهم حجة الله على العوام ، وقد يراقبهم للأخذ عنهم من لا يُنظرون ، ويقتدي بهم من لا يعلمون ، وإذا لم ينتفع العالم بعلمه ، فغيره أبعد عن الانتفاع به .

وأن يعامل الناس بمكارم الأخلاق من : طلاقة الوجه ، وإفشاء السلام ، وكظم الغيظ ، وكف الأذى عن الناس واحتماله منهم .. [7] .

3- الأخلاق الخاصة بمعاملة الطلاب والتلاميذ : يقول الغزالي عن هذه المعاملة : ثم على المعلم أن يشفق على المتعلمين ، وأن يجريهم مجرى بنيه ، وألا يدع من نصح المتعلم شيئاً ، وأن يمنعه من التصدي لرتبة قبل استحقاقها ، ثم ينبهه أن الغرض من طلبه العلم الثقافة والقرب من الله دون الرياسة والمباهاة والمنافسة وأن يهتم بأخلاق التلاميذ اهتمامه بعقولهم ، وأن يزجرهم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ، وألا يصرح بالزجر إلا عند الضرورة .

وعلى المدرس أن يربي في تلميذه ملكة الاجتهاد والنظر لا مجرد التقليد والتسليم حتى ينشأ مستقلاً لا نسخة من معلمه [8] .

ومن الأخلاق التي تضبط هذه العلاقة إذا كان التلاميذ كثرة : العدل بينهم ؛ والعدل من أصول الأخلاق ، وبه جاءت الشريعة الإسلامية ، ولذلك نهت عن كل صور الظلم ، فتعميم التعليم من العدل ولكن منعه ممن لا يستحقه كبذله لمن يستحقه، والمساواة بين التلاميذ عند تعليمه وعدم التفريق بينهم في ذلك من العدل ، وإذا منح الأستاذ لأحد الطلاب عناية خاصة فلأجل تفوقه ونبوغه لا لماله وقرابته .

4- الأخلاق المتعلقة بالهيئة عند التدريس : وقبل أن يلتفت علماء التربية إلى أهمية الهندام في العمل التربوي ذكره علماؤنا ضمن أخلاق العالم عند التدريس ؛ يقول ابن جماعة : إذا عزم العالم على مجلس التدريس تطهر من الحدث والخبث ، وتنظف وتطيب ، ولبس من أحسن ثيابه اللائقة به بين أهل زمانه ، قاصداً بذلك تعظيم العلم وتبجيل الشريعة [9] .

ونلاحظ في هذا النص المرونة في أمر اللباس تبعاً لاختلاف العصور والبلدان، لكن الهيبة والنظافة والجمال تبقى مميزات ثلاث لأنواع اللباس التي لبسها العلماء

في مجالسهم التعليمية .
ولا يخفى أن أنظار التلاميذ تتجه إلى الأستاذ ساعة أو أكثر ، فيجب أن تقع
أنظارهم على شيء مستحسن ، فإن ذلك أيضاً من الخلق الذي يأخذونه عنه .
وأما هيئة التدريس : فقد عددوا لها أخلاقاً ، منها : السكينة ، والوقار ،
والتواضع ، والافتتاح بالحمد لله والختم بذكره ، وتفويض العلم له بأن يقول : هذا ،
والله أعلم .
وأما الكلام الذي يتكلم به أثناء الدرس : فقالوا : عليه أن ينزه لسانه عن كثرة
المزاح والضحك فإن من مزح استخف به ، ومن أكثر من شيء عُرف به ، وأن
يتجنب الكلام الفاحش ، فإن اضطر لاستعمال كلمة يُسْتَحْيى منها ففي الكناية ما يغني
عن التصريح إلا أن يكون التصريح لازماً للتوضيح .
ومن الأخلاق العلمية التي سبق علماؤنا إلى التأكيد عليها : الالتزام بموضوع
الدرس ، واستيفاؤه شرحاً ، وقد اتخذوا موقفاً وسطاً بين من لا يقبل أي استطراد
وبين من لا يتقيد بموضوع أو مقرر ؛ يقول ابن جماعة : وكان بعض العلماء
والزهاد يختم الدروس بدرس رقائق يفيد به الحاضرين تطهير الباطن ، ونحو ذلك
من : عظة ، ورقة ، وزهد ، وصبر [10] .
ومعنى هذا : أن الأستاذ إذا استوفى الدرس حقه لا بأس أن يفيد الطلاب
بفوائد أخرى يرى أن غيره لا يفيدهم بها خصوصاً في هذا المجال الأخلاقي ،
ويزيد ابن جماعة شرطاً آخر فيقول : فإن كان في مدرسة ولواقفها في الدروس
شرط اتبعه ، ولا يُخل بما هو أهم ما بنيت له تلك البناية ، ووقفت من أجله وهذا
بتعبيرنا المعاصر هو احترام المقررات العامة للمؤسسة .
5- أخلاق السؤال والإجابة : وكلام علمائنا في هذه النقطة يدور حول الرفق
والتلطف : فإذا فرغ الشيخ من شرح درس ، فلا بأس أن يطرح مسائل تتعلق به
على الطلبة ؛ يمتحن بها فهمهم وضبطهم لما شرح لهم ، فمن ظهر استحكام فهمه له

بتكرار الإجابة في جوابه شكره ، ومن لم يفهمه تلطف له في إعادته له [11] .

هذا الخلق هو الذي يحبب للطلاب المراجعة ؛ لأنه يسألهم ويمتحن استيعابهم برفق ودون إحراج ، وإذا سألوه أجاب بما يعلم ، وقال فيما لا يعلم : لا أعلم ، بل إن كلام علمائنا عن الرفق يمتد إلى العقوبة الحسية والمعنوية التي قد يلجأ إليها الأستاذ لتنفير الطلاب من التهاون والتقصير .

والملاحظ أن علماءنا كانوا يفضلون التعزيز الإيجابي على التعزيز السلبي [12] قبل أن تقول به المدارس المعاصرة ؛ فهم يفضلون الثناء على الطالب المجد بين أقرانه ليكون لهم قدوة ، على معاقبة المقصر ليكون لهم عبرة ، وإذا أُلْجِئوا إلى العقوبة يجعلونها آخر الدواء ، ولذلك ذكروا مراتب ستّاً للتعزيز السلبي:

الأولى : عفو الأستاذ إذا كان الخطأ أول مرة .

الثانية : النصح .

الثالثة : العقاب الخفيف .

الرابعة : العقاب الشديد .

الخامسة : العقوبة البدنية من غير شدة بعيداً عن التشفي والانتقام .

6- الأخلاق المتعلقة بالموضوع المدروس : على العالم أن يحفظ درسه من الموضوعات التي تخدش الحياء ، وتشجع على المجون والخلاعة ؛ ولذلك كانت مدارس المسلمين خالية من دراسة الأدب المكشوف والفن الهابط ، وكانت موضوعات الدراسة نظيفة ، لأنها منتقاة ، وهذا ما يسمى اليوم بتطهير المعلومات ، وهو إحدى المهام الثلاثة للمدرسة ، أما الثانية : فهي تنظيم هذه المعلومات ، والثالثة: تبسيطها .

التلميذ :

1- يعتبر علماؤنا أن حسن الخلق أساس النبوغ في العلم ، ولذلك : فإنهم عندما يلحون على ربط العلم بالأخلاق لا يقصدون آثارها في حياة الطالب بعد الدراسة فقط ، بل يقصدون آثارها في حياته أثناء الدراسة نفسها ، وفي المجال العلمي الذي هو بصدده ، ورغم أن العلاقة بين جودة التحصيل وقوة الذاكرة وبين

الاستقامة على الدين والتمسك بمكارم الأخلاق : علاقة خفية ، فإن العلماء والمربين
المسلمين تنبهوا إليها ؛ يقول أبو حامد الغزالي : على الطالب أن يكون طاهر النفس
عن رذائل الأخلاق ومذموم الصفات ، فطهارة النفس وحسن الأخلاق أساس النبوغ
في العلم ، وربما حصل سيئ الأخلاق على العلم ، غير أنه لن ينتفع به ولن ينفع به، فكأنه لم يحصله [13] .

2- وبعد أن أكدوا على علاقة الأخلاق بحسن الاستفادة والانتفاع بالعلم ،
جعلوا طلب العلم نفسه خُلقاً ، وتكلموا عن الهمة العالية وعن الجد في الطلب حتى
يصير العلم هواية وسلوة ، وعندما يصير كذلك يصعب التحول عنه إلى غيره .

3- ويعينه على بلوغ هذه المرتبة خلق آخر هو التواضع ، فمهما بلغ علمه لا
يغتر به ولا يخرجه إلى ساحة الإعجاب بالنفس ، فلا زال المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل .

4- كما يعينه أيضاً انشغاله عن عيوب الناس ، وانصرافه إلى عيب نفسه وما
تعانيه من نقص في العلم وتقصير في العمل ، وإذا ترك الناس وأقبل على نفسه
يُكملها بالعلم والخلق تعود على استغلال الوقت وحسن استثماره .

5- وبما أن الطالب في السابق كان هو الذي يختار شيوخه : كثرت الوصية
باختيار أهل العلم والورع ، فإذا اختار الأعلم والأتقى فليلازمه بالصبر والتواضع
والاحترام .

6- أما علاقة التلميذ بالتلميذ : فكانت تحكمها أخلاق الأخوة في الإسلام من
المحبة في الباطن والتعاون في الظاهر ، يصاحب المجد التقي ويجتنب الكسلان
والشرير ، وإذا ابتلي برفيق سوء تلطف حتى يتخلص منه .

---

(1) أحمد شلبي : التربية والتعليم في الفكر الإسلامي ، ص332 ، ط ثانية ، مكتبة النهضة المصرية .
(2) ابن خلدون : المقدمة ، ج1 ص439 ، دار نهضة مصر ، بتحقيق علي عبد الواحد وافي .
(3) ابن قتيبة : عيون الأخبار ، ج2 ص167 ، نقلاً عن : أحمد شلبي : مرجع سابق ص63 .
(4) المقدمة ، ص397 .
(5) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج1 ص363 ، نقلاً عن : أحمد شلبي : مرجع سابق ص64 .
(6) انظر : (صفحات من صبر العلماء على العلم والتحصيل) للشيخ عبد الفتاح أبو غدة .
(7) تذكرة السامع والمتكلم بأدب الصالح والمتعلم ، ص 20 ، دار الكتب العلمية .
(8) إحياء علوم الدين ، ج8 ص46 - 47 .
(9) المرجع السابق ، ص 30 .

(10) نفس المرجع ، ص 37 .
(11) المرجع السابق ، ص53 .
(12) مصطلح التعزيز : مصطلح نفسي تربوي يعني التدعيم ، وقد يكون إيجابيّاً بتشجيع الفرد على الاستجابة الصائبة ، وقد يكون سلبياً بتنفيره من الاستجابة الخاطئة .
(13) الإحياء ، ج1 ص40 .

خواطر في الدعوة

الفرصة السانحة

محمد العبدة

إذا كان الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون يرى في سقوط الشيوعية والاتحاد السوفييتي فرصة سانحة للغرب وبزعامة أمريكا لفرض حضارته وقيمه وثقافته على الآخرين ، فإن المسلمين يرون أنها فرصة سانحة لهم : لنشر إسلامهم وثقافتهم بين الشعوب التي عانت وتعاني من عجرفة الحضارة الغربية ، كما عانت من كثرة التحولات الفكرية التي أخذتهم يميناً وشمالاً ، ولم توفر لهم فرص السعادة والاطمئنان .

إن الفساد المستشري في الأرض يشبه ما جاء في الحديث : إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم [1] .. وإن الإنسانية بحاجة إلى من ينقذها من أوبائها الاقتصادية ، حين أصبح تاريخها كأنما هو تاريخ الأسنان والأضراس [2] وإذا كان الرئيس نيكسون بدا منتشياً بسقوط الاتحاد السوفييتي إلا أنه لم تمض سنوات قليلة حتى ظهر في الغرب من يقول ب (صدام الحضارات) وليس بزعامة الغرب المطلقة ، وظهر من يكتب عن (الهيصة الديموقراطية) [3] ، وتكلم بعض الباحثين عن خيانة الرأسمالية الغربية لمبادئها الأولى وكيف تحولت إلى (بورصة) .

إن ما يجري في العالم فرصة للمسلمين لإعادة الشعوب التي خرجت من مظلة الاتحاد السوفييتي إلى دينها ، ونشر الإسلام الصحيح بين صفوفها ، وهي شعوب اشتهرت بقوة الشكيمة ، وشدة البأس ، وتحتل موقعاً عريضاً من الأرض (من حدود اليونان إلى بخارى وسمرقند) ، كما أنها فرصة لنشر الإسلام الصحيح بين شعوب

جنوب شرقي آسيا ، وهي الآخذة اليوم بأسباب القوة والتقدم الصناعي ، وإن
الشعوب الإسلامية على اختلاف أماكنها وألوانها تحمل في داخلها من الصفات
القويمة ما يؤهلها للنهوض ، وإن حُرمت من كثير من أسباب العلم والعمل ، وكل
هذا بحاجة لجهود جمعيات ومؤسسات ، وبحاجة إلى تجديد في وسائل الدعوة سواء
أكان ذلك عن طريق الكتاب ، أو المحاضرة ، أو الإعلام المرئي والمسموع ، وإن
في المسلمين من العلماء والمفكرين من هو قادر على هذا التجديد في وسائل الدعوة، وعرض الإسلام عرضاً بسيطاً واضحاً وقويّاً .

ولعلّ انهيار المذاهب الفكرية المعاصرة يكون تقدمة وتوطئة لانتشار الإسلام
إلى كل حَجَر ومدر ، بل هو في الواقع آخذ في الازدياد بكيفية تسترعي النظر ،
وقد سمعنا أن مسؤولي السجون في أمريكا يتمنون أن يتحول السجناء إلى الإسلام
ليرتاحوا من المشاكل والمشاغبات ، ويسمحون للدعاة في الدخول على السجناء
وإلقاء الدروس والعظات .

أما عن خبر هذه الحملة التي يتولى كبرها الإعلام العالمي والمحلي ، وعن
هذا التهويش والتهويل عن خطر الإسلام ، ووجوب التصدي له ، فإن كل هذا لا
يرعبنا ولا يخيفنا وقد نهى الله (عز وجل) المؤمنين عن الوهن لما أصابهم بأحد ،
وعن الحزن على مَنْ فُقد ، وعلى مذمة الهزيمة ، وأنّسهم بأنهم الأعلون أصحاب
العاقبة ، والهون : الضعف واللين ، ومن كرم الخلق ألا يهين الإنسان في حربه
وخصامه ، لا يلين إذا كان محقّاً ، وأن يتقصّى جميع مقدرته ، ولا يضرع ولو مات، وإنما يحسن اللين في السلم والرضى .. [4] **.**

---
(1) أخرجه الإمام مسلم في باب صفة أهل الجنة وأهل النار .
(2) الرافعي : وحي القلم ، ج2 ، ص10 .
(3) عنوان كتاب لمؤلف فرنسي ، وهو يعتبر أن الظاهرة الديموقراطية ظاهرة نسبية ، وأنها الآن في دور الانحطاط .
(4) تفسير ابن عطية ج2 ، ص225 .

نحو وعي سُنني

خالد أبو الفتوح

من المآثر المهمة للصحوة الإسلامية المعاصرة : التنبه إلى أهمية الكشف عن سنن التغيير واستخدامها في الأنفس والمجتمعات ؛ فمعرفة هذه السنن (القوانين) والعمل بها : أمر ضروري لإحداث أي حراك اجتماعي طبيعي في أي مجتمع يعاني من التخلف أو الركود الحضاري ، أو يُراد له تصحيح مسار حركته .

وقد كانت هذه السنن معلومة ومعمولاً بها منذ عهد خير القرون ، ثم أخذ الضمور يصيب الوعي بها شيئاً فشيئاً حتى انتهى الأمر إلى التسليم عمليّاً على الأقل بأنه ليس ثمة نظام يوجه حركة التاريخ ، وفي النهاية وفي غيبة منهج أهل السنة : ألقي هذا الوعي في سلة عقيدة الجبرية ، حيث لا مكان لعمل الأسباب ، وأصبحت هذه الأمة هي أكبر أمة تُتخطف حتى من أحقر الأمم ، ولكن .. بوعي وتخطيط مدروس وفقاً لهذه السنن .

نعم .. كان العلم والعمل بهذه السنن مركوزاً في حركة المجتمع الإسلامي منذ عهد النبوة ، ولكنه كان كبقية العلوم الإسلامية غير مقنن وغير مدون ، تماماً كما كانت أصول فقه الأحكام الشرعية موجودة قبل ظهور أول كتاب مدون في هذا العلم (الرسالة ، للإمام الشافعي) ؛ يظهر ذلك جليّاً لمن تدبر كتاب الله وبخاصة قصص الأمم السابقة : ﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ... ﴾ [الروم : 9] ، وفي قصص الأنبياء ؛ فهي لم تذكر لمجرد التلاوة أو السرد القصصي ، بل : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ... ﴾ [يوسف : 111] ، ويظهر أيضاً في سيرة الرسول -صلى الله عليه وسلم- ومنهجه الرشيد تجاه الأفراد ، ثم الطوائف والجماعات ، ثم التكتلات والدول ، ويظهر كذلك في سلوك الصحابة والسلف الصالح (رضوان الله عليهم) تجاه الأفراد ، وفي جهادهم الواعي للأمم الأخرى .

لقد كان الجهاد بمفهومه الشامل باباً واسعاً لفتح آفاق فهم وتطبيق سنن التغيير، ومع البعد عن زمن النبوة : كان هذا الباب ينكمش رويداً رويداً في الفهم ، وفي التطبيق ، فرأينا انكماش مفهوم الجهاد إلى القتال ، ثم انكماش القتال إلى الدفاع ، ثم تحول الدفاع إلى تعايش سلمي وعلاقات قائمة على مصالح مشتركة مع تغييب قيم الأمة ومبادئها .. وفي منحى آخر : أصبح مفهوم الجهاد مرادفاً للعنف والاغتيال السياسي . وصاحب ذلك بالتدرج نفسه غفلة الأمة عن دورها الرائد بين الأمم باعتبارها أمة شهادة على الناس ، وغفلتها عن دورها الرقابي الإصلاحي باعتبارها خير أمة أخرجت للناس .

أي إننا نستطيع القول : إن المفهوم الصحيح للجهاد شاملاً الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان يمثل آلية عفوية للتحرك من خلال سنن التغيير ، ولكن كانت هذه الآلية مركوزة في الوعي الباطن ، ولم تظهر في بؤرة الوعي المنظور كبقية العلوم ، إما للانشغال بالعمل بها كما كان في القرون المتقدمة وإما لعدم الانتباه لأهميتها ، كما كان يظهر في عهود الانحدار والانحطاط .

وتأتي مقدمة ابن خلدون كأول محاولة لوضع أسباب رقي وانحطاط الأمم في بؤرة هذا الوعي المنظور ، فجاءت هذه المقدمة لتكون بداية تقنين وتدوين (أصول فقه التاريخ) ، ولكن .. لماذا لم تستمر هذه البداية لتكون دفعة لتأصيل ونشر الوعي بهذا العلم ؟ لقد كان ابن خلدون نفسه يأمل أن يأتي مِن بعده مَن يتم ما بدأه [1] ، ولكن لم يتحقق أمل ابن خلدون بالرغم من أن الحركة العلمية بين المسلمين في هذا الوقت لم تكن سيئة في فروع أخرى من العلم .

كان ابن خلدون عالماً لم يجد أصحاباً يقومون بنشر خلاصة علمه وعصارة تجربته ، ولم يكن هذا الحدث هو الأول من نوعه في تاريخ الحركة العلمية عند المسلمين ، بل سبق أن حدث أكثر من مرة أن ضاعت اجتهادات علماء أفذاذ بسبب عدم قيام تلاميذهم بالنشاط الكافي لنشر علمهم واجتهاداتهم ، ومنهم الإمام الليث الذي

قال عنه الشافعي (رحمهما الله) : الليث أفقه من مالك ، ولكن أصحابه لم يقوموا
به [2]، ولكن الخطورة في حالة ابن خلدون هي : ارتباط العلم الذي وضع قواعده به ، فإنه في حالة الإمام الليث أو غيره كان هناك فقهاء آخرون يقومون بإثراء الاجتهاد في فقه الأحكام الشرعية إذا لم يقم هؤلاء الأصحاب بواجبهم ، أما في حالة علم (أصول فقه التاريخ) : فإن تقنينه وتدوينه بدأ وانتهى عند ابن خلدون . والذي يظهر : أن هذا العلم باعتباره يمس أمر الدول والمجتمعات بصفتها التكتلية والتفاعلية كان في حاجة إلى عقل جماعي متحرك للكشف عنه ثم نشره ، وإلى وعي اجتماعي للسير وفق سننه وقوانينه ومن ثم : إثراء الاجتهاد فيه[*]، وإلى قيادة مدركة لأهمية هذه الحركة العلمية وهذا الاتجاه المجتمعي فتقوم بالدعم ، وليس بالعرقلة خوفاً من ضياع سلطانها المزيف إذا انتشر الوعي بهذه السنن ! ! .

ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، وبقيت مقدمة ابن خلدون كلؤلؤة علمية مستقرة
في قاع التراث ، يعلم الناس بوجودها ، ولكنهم لا يدركون أهميتها فلا يكلفون
أنفسهم عناء الكشف عنها .. إلى أن لمع بريقها بعد قرون من الزمن لرجال من
المشرق ، اختلفت مقاصدهم من صيدها ، ولكنهم في النهاية أخرجوها وصقولها ثم
عرضوها ، لكن .. في إطار مخملي خلف ستار زجاجي ، لا يطلع عليها إلا نخبة
المفكرين و صفوة المثقفين ! ! فتحولت المقدمة إلى ثقافة باردة ليس لها صدى في
حركة المجتمعات التي هي تستهدفها في الأساس .

ولم يهتم الإسلاميون في بداية أمرهم اهتماماً ذا بال بالمقدمة ، إما لانشغالهم
ببيان صحيح الإسلام ومدى المخالفات الحادثة في الواقع ، مع عدم إدراكهم إدراكاً
كافياً لسبل تغيير هذا الواقع ، وبالتالي : عدم البحث عما يرشد إلى هذه السبل ،
فاستقرت جهود معظمهم عند حدود الحركة الوعظية المجردة ، وإما الانصراف عنها
نتيجة الانصراف عن صاحبها بسبب كلام عالم مشهور عن بعض تصرفات ابن
خلدون الشخصية ، أو نتيجة بعض الثغرات والاجتهادات التي لا يُوافق عليها ؛
وهذا الموقف من ابن خلدون ومقدمته : خطأ منهجي ؛ فالمقدمة فيها فوائد كثيرة ؛

فيجب ألا تهمل من أجل أخطاء أو أقوال غير صحيحة [3] .
ومن المنطقة نفسها التي خرج منها ابن خلدون ، وبعد خمسة قرون ، خرج مفكر منهجي يبين أسباب التخلف الحضاري الذي قبعت الأمة بسببه في ذيل الأمم ، ورضيت بجُثُوم الاستعمار فوق صدرها .
ظهر مالك بن نبي وكأنه صدًى لعلم ابن خلدون يهمس في وعي الأمة بلغة القرن العشرين ، فأظهر أمراض الأمة مع وصف أسباب نهضة المجتمعات ، ووضع الاستعمار تحت المجهر ؛ فحلل نفسيته ، ورصد أساليبه الخبيثة في السيطرة على الأمم المستضعفة وبخاصة المسلمين ووضع لهم معادلات وقوانين الإقلاع الحضاري .. ولكن الأمة لم تقلع حضاريّاً ؛ وذلك إما لثقل حجم التخلف بين أفرادها ومؤسساتها ، وإما لضعف المحرّك المقرر أن يقلع بها ، وإما لاجتماع السببين معاً .. ومع ذلك فقد بقيت هذه المعادلات والقوانين نظريات مفيدة للمحرّكِين الذين يهتمون بانطلاق المشروع الحضاري للأمة .
ومع أهمية ما تركه مالك من فكر إلا أنه ظل في أذهان كثير من شباب الصحوة فكراً مَتْحفيّاً ، لا يهتم به إلا المتخصصون من روّاد الفكر الساكن على الرغم من أنه (نموذج لنظريات الحركة الاجتماعية) ، ولعل من أسباب هذه الفجوة ما يلي :
1- جفاف أسلوب مالك نظراً لأن معظم كتبه مترجمة عن الفرنسية .
2- افتقاد كلامه للبعد الشرعي ، بل جل فكرة استقاه من النظر والتأمل في الواقع ، والاطلاع على أطروحات بعض المفكرين الغربيين ، وذلك نتيجة اختلاط منابع فكره ؛ فظهر فيها بعض الكدر .
3- وقوعه في بعض الأخطاء الاجتهادية والسقطات السياسية ؛ نتيجة السبب السابق .
4- وقوع بعض خلاف في وجهات النظر بينه وبين أحد رموز الصحوة .
ومع كل ذلك : فإنه لا سبيل لمنصف إلا أن يضع فكر مالك بن نبي بأسلوبه

الصعب وأخطائه الاجتهادية وسقطاته السياسية كدواء مهم ينبغي على المريض
تناوله رغم مرارة طعمه ورغم آثاره الجانبية [4] .
ونلاحظ أن أسباب التجافي عن كتابات مالك تقترب من أسباب إهمال علم ابن
خلدون وبخاصة آخر سببين ، ولكن مالك كان أوفر حظّاً من ابن خلدون حيث تهيّأ
له أصحاب من المشرق أيضاً يقومون به عنايةً بفكره ونشراً له وتوضيحاً ،
فأخرجوا أفكاره في طبعة جديدة مزيدة ومنقحة ، احتوت على مستحضرات فكرية
مشتقة من تركيبة مالك الحضارية ، ولكن راعوا فيها تحسين طعمها وتخفيف آثارها
الجانبية .
ومع ذلك فقد كان من الملاحظ وجود هوّة بين الأعمال الفكرية التي تهتم
بكشف سنن التغيير وبين النبع الصافي لهذه السنن أعني : القرآن الكريم ، ومعه
السنة النبوية الصحيحة واختلفت علاقات هؤلاء الكتّاب بهذا النبع :
1- فمنهم : من حاول الاجتهاد في الاستنباط من هذه النصوص قدر طاقته ،
ولكنه اجتهاد غير أصيل ؛ لاختلاط روافد فكره ، ونتج عن ذلك : عدم كفاية الإقبال
الذي يستحق صاحبه أن تفتح عليه كنوز القرآن والسنة ، فندعو الله أن يثيب من
ذلك شأنه على اجتهاده .
2- ومنهم : من استدل بنصوص الوحي كشواهد لصحة أفكاره الاجتماعية ؛
فهذه الأفكار لم تكن بنت الأدلة ، ولكن كانت الأفكار سابقة عليها ثم أتي بالأدلة
معضدة لها .
3- ومنهم : من أورد أدلة الوحي للالتفاف حول بعض الطيبين لإقناعهم بهذا
الخير من الباب المحبب إليهم المقنع لهم .
4- ومنهم : من أوردها لمجرد ذر الرماد في العيون حتى لا يتهم بأن هذه
الأفكار اجتهاد شخصي .
5- ومنهم : من أهمل نصوص الوحي إهمالاً شبه كلي اعتماداً على النظر في
علم الاجتماع ، وتدبر تجارب الحركات والأمم ، واستنطاق أحداث التاريخ ، بل :

والنظر في العلوم الطبيعية والتجريبية لاستخراج سنن التغيير في الأنفس والمجتمعات .

ولا شك أن هناك مندوحة للنظر في مثل هذه العلوم لاستخراج السنن والقوانين التي تحكم تغيير النفوس والمجتمعات ، بل نرى أن النظر في مثل ما سبق وبخاصة أحداث التاريخ هو من مقتضى قوله (تعالى) : ... أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ [يوسف : 109] ، .. وغير ذلك من الآيات التي تحث على دراسة عاقبة أي : نتائج ومآل أفعال الذين من قبلنا الذين سبقونا تاريخيّاً ، بل في الآيات حث على السير وهو دعوة للدراسة العملية للتاريخ فضلاً عن تذاكر الأخبار .. والحكمة ضالة المؤمن .

وعندما نستخرج سنن التغيير من النصوص الشرعية ، فقد نجد التقاءً في نقاط تقاطع مع بعض ما يُذكر في هذه العلوم أو غيرها :

فمثلاً : يقول بعض علماء الحضارات : إن شيوع الترف وتفشي الانحراف الجنسي والتحلل الخلقي سبب لانهيار الحضارات ، ونجد ذلك في السنة المستخرجة من قوله (تعالى) : وَإذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا القَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً [الإسراء : 16] ، فنستطيع أن نضع هذه السنة كالآتي :

ترف + فسق (استفاضة بلاغ+ وعدم استجابة) --> = تدمير وانهيار .

وعند إعمال هذه السنة في أمة المصطفى -صلى الله عليه وسلم- ؛ نجد حديثاً يبين نوع العقوبة التي يمكن أن تقع على الأمة ، وذلك في قوله -صلى الله عليه وسلم- : سألت ربي ثلاثاً ، فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة : سألته أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها ، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها [5] .

وكذلك المبدأ الشهير في السياسة فرّق تَسُدْ : يستخدمه حزب الشيطان لنصرة

الباطل وإضعاف أهل الحق ، ويستخدمه حزب الله لنصرة الحق وإضعاف أهل
الباطل ، والمتتبع لغزوات الرسول -صلى الله عليه وسلم- وسيرته في مواجهة
قوى الكفر يجد أنه استخدم هذا المبدأ غير مرة ، ولكن لنصرة وسيادة دين الله .
وكما أننا نجد نقاط التقاء بين هذه العلوم المستخرجة من نصوص الوحي ،
نجد أيضاً نقاط افتراق ؛ كما في السنة المستخرجة من قوله (تعالى) : ﴿ فَلَمَّا
اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ .. ﴾ [مريم : 49] ،
وقوله (تعالى) : ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ
رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً ﴾ [الكهف : 16] ؛ فاعتزال الشرك
واعتزال أهله بعد البلاغ المبين يترتب عليه هبة وزيادة فضل إلهي .. بينما لا فرق
عند الناظرين في العلوم السابقة نظرةً عقلانية بحتة بين اعتزال الشرك واعتزال
التوحيد ! !
فالمقصود : أن هذه العلوم المذكورة وغيرها من العلوم والمعارف : كفقه
الواقع ، و فقه الحركة ، ومعرفة مقاصد الشريعة ، بجوار فقه التاريخ لمعرفة أسباب
قيام وسقوط الدول والحضارات ، ودراسة أسباب نجاح وفشل الحركات الاجتماعية
القديمة والحديثة ... كل ذلك يمثل منظومة واحدة يمكن الاستفادة بها في التغيير إذا
أُحسن الاستفادة والتنسيق بينها .
ولكن .. **هل مجرد التغيير هو كل ما يهم المسلم ؟** ... إن معرفة كل ما سبق
قد يعطي تمكنّاً في قوانين التغيير ، وعند استعمال هذه القوانين فقد يتحقق التغيير
والتمكين ، ولكنه لا يؤدي وحده إلى تمكين الرضا والاستخلاف في الأرض ،
فمعرفة هذه القوانين قد يُنتج مسلماً صاحب وعي حضاري ، ولكنها وحدها لا تنتج
مؤمنين يستحقون معيّة الله الخاصة واستخلاف الله لهم في أرضه .
* وهذا هو أول المعالم المميزة والفوائد العديدة للإقبال على نصوص الوحي

لأخذ سنن التغيير ، فالتوجه الأول يساعد على معرفة أسباب التمكين المجرد ،
والتوجه إلى نصوص الوحي يدلنا على أسباب تمكين الرضا الذي من أهم أركانه :
تحقق صفات (التوحيد) ، و (التقوى) ، و (الصلاح) فيمن يستحقونه ، وهذا ما تدل
عليه آيات من كتاب الله ؛ كقوله (تعالى) : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ
الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً ... ﴾
[النور : 55] وقوله (تعالى) : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم
بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ... ﴾ [الأعراف : 96] وقوله (تعالى) : ﴿ وَلَقَدْ
كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾
[الأنبياء : 105] ... إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تدل على هذا المعنى ، والتي تفتح لنا المجال للبحث في هذه المعاني من وجهة أخرى غير الوجهة الفردية .
وهذه المعاني قد يعتبرها بعض أصحاب التوجه الأول من أصحاب الفكر
الناضج ! و التقدمي أنها مجرد دروشة لا تقدم ولا تؤخر في التغيير .
* **وثانياً :** أننا عندما نقبل على نصوص الوحي لننهل منها منهج التغيير
يتضح لنا جوهر الصراع وأطرافه ، إضافة إلى معادلاته ، فسنن التغيير ما هي إلا
مجرد معادلات وقوانين إدارة الصراع ، أما جوهره فقائم على عداوة الشيطان
للإنسان (وليس للمسلم فقط) ، والله (عز وجل) يؤكد على هذه العداوة ، فيقول :
﴿ ... وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة : 168] ويقول على
لسان يعقوب : ﴿ ... إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف : 5] ، بل ويحثنا
ويحرضنا على عداوته ، فيقول : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُواً ... ﴾
(فاطر : 6) ... فكيف يمكننا بعد كل ذلك تهميش الحضور الشيطاني في المعركة ، والاقتصار على الإيمان الغيبي بوجوده ؟ ! فلابد للمسلم من استحضار هذه العداوة

ليستطيع المواجهة [6] . وطرفا الصراع هما : حزب الله
وحزب الشيطان ، ويمثل المتقون حزب الله ، بينما
يمثل قوى حزب الشيطان : أهل الكتاب ،
والمشركون ، والمنافقون . فلابد من معرفة صفات المتقين
كما أسلفنا التي بها يستحق أفراد حزب الله الفوز بمعية
الله الخاصة ، فيكونون مؤمنين حقّاً ينصرون الله فينصرهم
﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ [الحج : 40] ولا شك أن من
مقتضيات التقوى عدم التخلف عن المنهج الرباني في
التحويل والتغيير ؛ فحزب الله يستخدم السنن الربانية في
التغيير في الأنفس والمجتمعات استخداماً صحيحاً لمواجهة
الشيطان وحزبه في معركة العداوة بينهما .

وأيضاً : لابد من معرفة العدو وكل فصيل من تكتله (على
أرض الواقع) :
معرفة صفاته الخلقية ، ودواخله النفسية ، وطريقة تفكيره
، ودوافعه ، ونقاط
الضعف فيه ، ومراكز القوة ...

وكذلك لن يستغني حزب الله عن الوعي بالخطة المضادة
للعدو أي : المنهج
الحركي للشيطان (أو ديناميكية الشيطنة) لمعرفة أساليبه في
التغيير والتأثير ، فالله
(عز وجل) لا يكتفي بالتأكيد على عداوة الشيطان للإنسان ،
بل يوضح أساليبه
وطرقه في المواجهة ؛ ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ... ﴾ [النساء :
45] .

فعناصر حزب الشيطان أولياءٌ للشيطان ، أي : إن
الشيطان رائدهم وقدوتهم ،
وهناك إيحاء متبادل بين شياطين الجن وشياطين الإنس : ﴿
وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ
عَدُواً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ
الْقَوْلِ غُرُوراً ... ﴾
[الأنعام : 112] ، وهذا ما يجعل أسس مناورات المعسكر
الشيطاني واحدة مع
اختلاف الزمان والمكان ﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾
[الذاريات : 53] .

*** وثالثاً :** أن الاعتصام بحبل الله يعطينا رؤية متكاملة
تعصمنا بحول الله من
الانزلاق إلى دعوات مخادعة أو سقطات سياسية ساذجة ؛
فبها نعرف أن الدعوة إلى
الإنسانية و ذوبان الحضارات : سراب كبير يكشفه قوله
(تعالى) : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ
لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ (هود : 118)
وأن الدعوة إلى السلام

العالمي وهمٌ يجليه قوله (تعالى) : ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ ﴾ [البقرة : 251] وكذلك تعارضها عقيدة الولاء والبراء .

وأن تبني اللاعنف خدعة كبرى كذبها الواقع فضلاً عن أنها تصطدم بدعوة القرآن للأمة بالإعداد واليقظة والتحفز لمواجهة أعدائها ... إلى غير ذلك من اجتهادات وسقطات .

* رابعاً : أن نصوص الوحي تشمل سنن التغيير في الأنفس وسنن التغيير في المجتمعات ، ففيها مجال فهم قوانين تغيير الأفراد بجوار ما تكسبه من الوعي باتجاهات وقوانين تغيير المجتمعات ، فيكون الناهل منها متكامل الإدراك شامل الوعي ؛ حيث نرى فيها مثل قوله (تعالى) : ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ [الحج : 40] (سنة المدافعة) ، كما نجد قوله (تعالى) : ﴿ ... ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : 34] وتكون سنة تحويل العداوة كالآتي :

عداوة (دفع بالإحسان) --< ولاية

كما نرى فيها قوله - -صلى الله عليه وسلم- - : يا عائشة لولا أن قومك حديث عهدهم قال ابن الزبير : بكفر لنقضت الكعبة فجعلت لها بابين : باب يدخل الناس ، وباب يخرجون بوّب له البخاري (رحمه الله) بعنوان : من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا في أشد منه [7] . وهكذا يعرف الفرد المسلم كيف يكتسب ويحتوي الآخرين ، كما يعرف كيف يواجههم .

* وخامساً : أنه ثمّة خصائص متميزة في الإقبال على القرآن الكريم لا تجدها في غيره :

1- فثمرة الاجتهاد فيه أقرب إلى الثبات واليقين ، ولكن يبقى جهد المتلقي في

التجرد والإخلاص والصلة بالله ليصل إلى المستوى الذي يليق بمن تفتح عليه كنوز
القرآن ؛ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا [العنكبوت : 69] وَنُنَزِّلُ مِنَ
الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إلاَّ خَسَاراً [الإسراء : 82] .
2- كون الانتهال منه عبودية يؤجر عليها المسلم (تدبر تفكر تعقل) ، وكذلك
العمل وفق منهجه .
3- والقرآن يخاطب الإنسان بما فيه من عقل وقلب ونفس ، بخلاف المصادر
الأخرى .
4- وهو أقرب إلى الحس وبداهة العقل وثقافة المسلم ، فينتفع منه كل مسلم
مقبل مهما بلغ مستواه العلمي .
5- وللقرآن سلطان على النفوس وسيطرة على الشعور لا يصلها أي مصدر
آخر .
وبعد .. فقد يثار تساؤل ، وهو : هل من المصلحة الكشف عن هذه السنن
والقوانين ؟ وأليس من الحكمة ألا يطلع الأعداء على هذه السنن ؟
وعند مناقشة هذا السؤال يجب أن ندرك :
1- أنه لا تقدم إلا بوجود وعي عام بهذه السنن ، بحيث يصل مفهوم هذه
السنن إلى العوام في صورة يقينيات بدهية ولو أخذت صورة عبارات مختصرة
تحمل معاني مكثفة ، فإنه لابد أن يعي كل شخص دوره في التغيير بحيث لا يعرقل
تصرف منه جهود بقية المجموع ، وبحيث تستثمر وتحشد كل الطاقات في اتجاه
التغيير إلى الأفضل .
2- أنه عند تساوي إمكانات حزب الله وحزب الشيطان ، أو عند وصول
حزب الله إلى بذل غاية الجهد : فإن معية الله الخاصة تتدخل لنصرة جنده ؛ يَا
أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا إن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ [محمد : 7] وَلَيَنصُرَنَّ
اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ [الحج : 40] ، فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ
وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ... [التغابن : 16] .

3- أن الأعداء يعرفون هذه السنن والقوانين بالفعل ولكن حسب توجههم ومناهجهم ويبنون عليها حركتهم السياسية في مواجهتهم لنا .

وأخيراً : فهذه دعوة لكل مسلم للعمل على تكوين وإشاعة إطار وعي سنني مع الحرص على ربانية المسلم ، ودعوة لعلمائنا ومفكرينا لبيان منهج رباني واقعي للتغيير .

وتنبيه للعاملين في حقل الدعوة إلى الله وإلى سبيل الله : أن التفلت من هذه السنن بدعوى أن علينا العمل وليس علينا النتائج على نحو إهمال إحكام الأسباب يعتبر تسللاً خفيّاً نحو عقيدة الجبر . وإن أي حركة لن تستطيع الوصول إلى تغيير صحيح بغير الوعي والتمكن من سنن التغيير ، لن تبلغ التغيير المنشود مهما أحكم تنظيمها ، ومهما بلغ علم وذكاء منظريها ، أو ألمعية وحكمة كوادرها ، أو إخلاص وتفاني أفرادها ، ولن تكفي مجرد إرادتهم للتغيير ، وبغير هذه السنن والقوانين سيكون نصيبها من النجاح هو ما كان لـ عباس بن فرناس عندما أراد أن يطير في الهواء جاهلاً قوانين الجاذبية ، فكان نصيبه من الطيران : تسجيل اسمه في التاريخ باعتباره أول هالك في سبيل التحليق في الفضاء .

---

(1) انظر : البداوة والحضارة ، نصوص من مقدمة ابن خلدون ، لمحمد العبدة ، ص18 .
(2) سير أعلام النبلاء للذهبي ج8 ص156 .
(*) أعني بذلك : أن تكون هناك منظومة فكرية يجتهد من خلالها أكثر من عقل مفكر على قواعد وأصول متقاربة ، بحيث يثري اجتهاد كل منهم اجتهاد الآخر ، وأن يكون هناك وعي بأهمية هذا العلم وبضرورة العمل من خلاله بين أفراد الأمة بحيث تعود تطبيقاتهم له وعياً بينهم وإثراءً للاجتهاد فيه بين المفكرين وهذا ما حدث للمذاهب الفقهية المعروفة ، ولذا : نجد ثراء المذهب الحنفي بأحكام الديار والسير ؛ لكونه انتشر في الثغور وأطراف الرقعة الإسلامية أكثر من غيره ، ولذا أيضاً : اقتصر علم الحديث على النخبة العلمية لعدم حاجة الأفراد إلى تطبيق مسائله .
(3) محمد العبدة : السابق ، ص20 .
(4) للأستاذ محمد العبدة دراسة قيمة عن مالك بن نبي استفدت منها ، يحسن أن يطلع عليها من يهتم بهذا الموضوع ، وقد نُشرت هذه الدراسة بعنوان قراءة في فكر مالك بن نبي في مجلة البيان ابتداءً من العدد (17) إلى العدد (23) .
(5) أخرجه مسلم : كتاب الفتن ، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض .
(6) يعتبر كتاب عندما ترعى الذئاب الغنم للشيخ رفاعي سرور قاعدة جيدة لمعرفة طبيعة هذه العداوة .
(7) البخاري : كتاب العلم .

دراسات اقتصادية

(الخصخصة) من المنظور الإسلامي
نظرات في موضوع بيع القطاع العام للأفراد

د .محمد بن عبد الله الشباني

بعد سقوط الاتحاد السوفييتي باعتباره نظاماً اقتصاديّاً وقوة عالمية ، وسَعْي الدول المكونة والتابعة له إلى التحول إلى نظام السوق ، وتبني الفكر الرأسمالي في تنظيم اقتصاديات تلك الدول ، وتفرد النظام الرأسمالي بتوجيه الاقتصاد العالمي والترويج لهذا الفكر : بأن يكون وحده الفكر الموجه للسياسات الاقتصادية للدول النامية ، بما يمتلكه هذا الفكر من مؤسسات اقتصادية عالمية تتحكم في الحركة الاقتصادية العالمية من خلال : البنك الدولي وصندوق النقد الدولي والمؤسسات المالية الأخرى المنتشرة في الدول الصناعية الرأسمالية .

لقد أخذت الدول الإسلامية التي كانت تتبع منظومة الاتحاد السوفييتي باعتباره نظاماً اقتصاديّاً يتبنى الفكر الاشتراكي القائم على تملك الدولة لمختلف الأنشطة الاقتصادية بتغيير سياستها الاقتصادية بعد سقوط هذا النظام ، والتحول إلى اقتصاد السوق القائم على الفكر الرأسمالي المتهود بدون دراسة للواقع التنظيمي للاقتصاديات الاجتماعية للدول الصناعية الرأسمالية ، وإنما اتجهت إلى تبني ما يمليه صندوق النقد الدولي من سياسات اقتصادية منزوعة من إطارها الذي قامت عليه تلك المجتمعات الرأسمالية المعاصرة ، وبدون النظر إلى المسيرة التاريخية للفكر الرأسمالي من ناحية التشريعات التطبيقية .

إن مفهوم (الخصخصة) كما يتم تداوله في الإعلام هو : تحويل الملكية العامة للأنشطة الاقتصادية المملوكة للدولة إلى الأفراد والقطاع الخاص ، وطرح هذه الأنشطة حتى لرؤوس الأموال الأجنبية ، بل إنه يتم تشجيع رؤوس الأموال الأجنبية على القدوم للتجارة في هذه الأنشطة ؛ ويعود ذلك إلى أن معظم أفراد شعوب الدول الإسلامية لا يتوفر لديهم رأس المال المدخر الذي يستطيعون به تملك

هذه الأنشطة ؛ ولهذا قامت الدول الإسلامية بتقرير سياسات استقطاب رؤوس الأموال الأجنبية ، لشراء هذه الأنشطة الاقتصادية وإدارتها وبيعها إلى مواطني تلك الدول . إن هذا التوجه سيكون له أثار سياسية متمثلة في تدخل الدول الصناعية في السياسات الإدارية والإنتاجية لهذه الأنشطة : من خلال حماية رؤوس أمواله المستثمرة في هذه المشروعات المباعة إلى القطاع الخاص الأجنبي .

وتدور المبررات المطروحة من قبل الأنظمة السياسية التي ترغب في تحويل أنشطتها الاقتصادية المملوكة للقطاع العام إلى القطاع الخاص والانفتاح على اقتصاد السوق ضمن إطار فكرة تفعيل الاقتصاد والتخلص من الأنشطة المسببة لخسارة الاقتصاد الوطني ؛ نتيجة لتدني الكفاءة التشغيلية ، وغياب الحافز لدى الإدارة وغير ذلك من المبررات ، بجانب الرغبة في الحصول على التمويل من قبل المؤسسات المالية الدولية والمؤسسات المالية الرأسمالية في الدول الصناعية .

إن تبني مفهوم (الخصخصة) لم يقتصر على الدول الإسلامية التي كانت تأخذ بنظام الاقتصاد المخطط ، الذي يقوم على تملك الدولة لمصادر الإنتاج وتقليص دور القطاع الخاص ، بل شمل الأمر تلك الدول التي كانت تُحسب ضمن معسكر اقتصاد السوق ، وتسمح للأفراد بتملك مختلف الأنشطة الاقتصادية ، ولكنها تولت إدارة وتملك أنشطة اقتصاديات المنافع العامة أو أنشطة اقتصاديات تنمية واستغلال الموارد الطبيعية ، لهذا : فإن من الضروري مناقشة هذا التوجه وإبراز الرؤية الإسلامية ، **وهل يمكننا استخلاص تصور من خلال منهج الإسلام لكيفية إدارة الاقتصاد بحيث يتم تحقيق الكفاية والفاعلية للاقتصاد مع احتفاظه بإطار حقوق الفرد في تملك المال ؟ .**

كما سبق أن أوضحت في مقالات سابقة : فإن الإسلام يعطي أهمية خاصة

للمال وحق الفرد في التملك بدون حدود من حيث الكمية وفق ضوابط الحلال
والحرام ومراعاة مقاصد الشريعة الأخرى .
إن حماية الناس من الاستغلال والاحتكار فيما يتعلق بالحصول على المنافع
العامة سواء أكانت منافع خدمية مثل الماء والكهرباء ، أو منافع مادية من الأمور
التي أولاها الإسلام عناية خاصة .
إن من أهم الملامح والركائز التي يتميز بها النظام الاقتصادي الإسلامي :
حماية أفراد المجتمع من وقوع القطاعات الاقتصادية التي يحتاجها الناس في مجملهم
في قبضة القوى المالية الفردية أو الجماعية ، لقد وردت جملة أحاديث وضعت
الإطار العام لهذا التوجه ، فمن ذلك : ما رواه أبيض بن حمال : أنه استقطع الملح
الذي يقال له ملح سدّ مأرب ، فأقطعه له ، ثم إن الأقرع بن حابس التميمي أتى
رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، فقال : يا رسول الله ، إني قد وردت الملح في
الجاهلية ، وهو بأرض ليس بها ماء ، ومن ورده أخذه ، وهو مثل الماء العِدّ ،
فاستقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أبيض بن حمال في قطيعته في الملح ،
فقال قد أقلتُك منه على أن تجعله مني صدقة ، فقال رسول الله -صلى الله عليه
وسلم- هو منك صدقة ، وهو مثل الماء العِدّ ، من ورده أخذه [1] فهذا الحديث
يضع قاعدة عامة تتمثل في : أنه لا يجوز منح امتياز أو تمليك فرد أو جماعة من
الأفراد لأي منتج خدمي أو سلعي إذا كان هذا المنتج يحتاج إليه عامة الناس إلا
ضمن شروط معينة تحفظ للناس حقوقهم ، وتمنع عنهم الاستغلال ، وتحقق منفعة
لاقتصاد المجتمع .
ويدل على ذلك ما روي عن ابن عباس قال : قال رسول الله -صلى الله عليه
وسلم- : المسلمون شركاء في ثلاث : في الماء والكلأ والنار ، وثمنه حرام [2] ،
وفي رواية أخرى عن أبي هريرة : ثلاث لا يمنعن : الماء والكلأ ، والنار [3]

وهذه الأحاديث في مجملها تؤكد : ضرورة أن يكون استغلال المنافع العامة التي يحتاج إليها الناس ؛ سواء أكانت استغلال موارد طبيعية أو بيع منافع عامة مثل : منفعة الكهرباء ، أو المواصلات ، أو التعليم ، أو غيرها ضمن نطاق العدل ، بحيث لا يؤدي منح بيع هذه المنافع إلى التحكم في المادة المنتجة أو المنفعة أو الخدمة المقدمة ، وأن على ولي الأمر وضع القواعد والأسس التي تحفظ حق الأمة بدون أن يؤدي ذلك إلى تعطيل استغلالها وحرمان اقتصاد المجتمع المسلم منها ، وفي الوقت نفسه الالتزام بالتوجيه النبوي الذي أشرت إليه والذي يؤكده أيضاً ما رواه أبو داود والطبراني في الكبير ، عن قيلة بنت مخرمة ، قالت : قدمنا على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، قالت فقدم صاحبي ، تعني : حريث بن حسان وافد بكر بن وائل ، فبايعه على الإسلام عليه وعلى قومه ، ثم قال : يا رسول الله ، اكتب بيننا وبين بني تميم بالدهناء : ألا يجاوزها إلينا منهم أحد إلا مسافر أو مجاور ، فقال : اكتب له يا غلام بالدهناء ، فلما رأيته قد أمر له بها شخص بي وهي وطني وداري ، فقلت : يا رسول الله ، إنه لم يسألك السوية من الأرض إذ سألك ، إنما هي هذه الدهناء عندك مُقَيّدُ الجمل ، ومرعى الغنم ، ونساء تميم وأبناؤها وراء ذلك ، قال : أمسك يا غلام ، صدقت المسكينة ، المسلم أخو المسلم ، يسعهما الماء والشجر ، ويتعاونان على الفتان [4] ، إن هذا الحديث يضع قاعدة عامة في التنظيم الاقتصادي ، وذلك : بأنه لا يجوز تخصيص مورد أو منفعة عامة لفئة من الناس دون أخرى إذا كان هذا التخصيص سوف يؤدي إلى الإضرار بالآخرين ، وإن مثل هذه الإجراءات تثير الفتن والمشاكل في المجتمع .

على ضوء الأدلة السابقة التي تحد من تملك الموارد الطبيعية ذات النفع العام ، وكذلك تملك استغلال المنافع العامة ومنع إقطاعها سواء أكان إقطاع تملك أو إقطاع استغلال منفعة ، يثور هنا تساؤل : ما هو التصور الذي يطرحه الإسلام لحل

مشكلة استغلال الموارد المتاحة للمجتمع وإدارة أنشطة اقتصاديات المنافع العامة ،
وفق إطار تشجيع تملك هذه الأشياء ، أو تمليك استغلال منافع الخدمات العامة ،
التي يحتاج الناس إليها مثل : الكهرباء ، والهاتف ، والمواصلات .. وغير ذلك من
المنافع الخدمية التي يحتاج إليها الناس ؟

إن النظرة التكاملية الشمولية التي يتميز بها النظام الإسلامي عن بقية الأنظمة البشرية تمد الدارس لشريعة الإسلام بالحلول ، وذلك من خلال الدراسة المباشرة لمصدري التشريع (القرآن والسنة) ، فيجد فيهما المخارج العملية لأي إشكال قد يعترضه ، سواء أكان ذلك في المجال التنظيري أو العملي .

إن الإشكالية التي قد تواجهنا هي : كيف يتم التوفيق بين الرغبة في استغلال الموارد المتاحة ، وإشباع حاجات الناس ، وتحقيق الكفاءة والفعالية في إدارة الأنشطة الاقتصادية ؟ .

إن معالجة هذه الإشكالية يتمثل في اتباع الآتي :

إبقاء أصل ملكية الموارد الطبيعية بيد الدولة ، ومشاركة الدولة في استثمار هذه الموارد ، مع إتاحة الفرصة للأفراد باعتبارهم عنصراً من عناصر الإنتاج (وهو عنصر العمل) بالمشاركة في استغلال هذه الموارد ، مع إشراك رأس المال من خلال استغلال رؤوس الأموال عن طريق : قيام الدولة بتوفير الأصول الثابتة التي تساعد قوة العمل على ممارسة النشاط بواسطة المشاركة في العملية الإنتاجية بالعمل ، ومشاركة أصحاب رؤوس الأموال من خلال : توفير رؤوس الأموال التشغيلية ، يُستدل على ذلك بدليلين : الأول ما رواه البخاري مرسلاً ، عن قيس بن مسلم عن أبي جعفر قال : ما بالمدينة أهل بيت هجرة إلا يزرعون على الثلث والربع ، وزارع علي وسعد بن مالك ، وعبد الله بن مسعود ، وعمر بن عبد العزيز ، والقاسم ، وعروة ، وآل أبي بكر ، وآل عمر ، وآل علي ، وابن سيرين ، وقال عبد الرحمن بن الأسود : كنت أشارك عبد الرحمن بن يزيد في الزرع ، وعامل

عمر الناس على : إن جاء عمر بالبذر من عنده فله الشطر ، وإن جاؤوا بالبذر فلهم
كذا [5] ، وأشار البيهقي في سننه : أن عمر بن الخطاب أجلى أهل نجران واشترى
عقرهم وأموالهم ، وأجلى أهل ضمك وتيماء وأهل خيبر واستعمل يعلى بن منبه ،
فأعطى البياض على : إن كان البذر والبقر والحديد من عمر ، فلعمر الثلثان ولهم
الثلث ، وإن كان منهم فلهم الشطر ، وأعطى النخل والعنب على أن لعمر الثلثين
ولهم الثلث .

إن عمل عمر (رضي الله عنه) مستمد من فعل رسول الله -صلى الله عليه
وسلم- ؛ فقد روى البخاري ومسلم عن ابن عمر (رضي الله عنهما) : أن رسول
الله -صلى الله عليه وسلم- أعطى خيبر لليهود ؛ على أن يعملوها ويزرعوها ، ولهم شطر ما يخرج منها [6] إن هذا المنهج الذي فعله رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ؛ وتبعه في ذلك عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) تطبيقاً لعمل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قاعدة مهمة في إدارة الاقتصاد الإسلامي فيما يتعلق بكيفية استثمار واستغلال عناصر الإنتاج مع الإبقاء على روح المبادأة الفردية والبعد عن البيروقراطية ، فَفِعْلُ عمر (رضي الله عنه) يحدد لنا منهجاً يمكن ممارسته في هذا العصر ، بل إن ممارسته سوف تحل كثيراً من المشاكل فيما يتعلق منها بإيجاد الموارد المالية للدولة بدون اللجوء إلى فرض الضرائب ؛ وذلك من خلال قيام الدولة بتوفير مستلزمات الإنتاج بتوفير ما يعرف محاسبياً بالأصول الثابتة، وتفويض استغلال هذه الموارد الطبيعية إلى أفراد الأمة من خلال إعطائهم حق
الاستغلال بدون تدخل في كيفية الإدارة ، على أن يكون نصيب الدولة مربوطاً
بالإنتاج وليس بالربح ، فالدولة في هذه الحالة لا تتدخل في كيفية إدارة النشاط ،
ولكنها تتحصل على نسبة من الدخل يكون مصدراً من مصادر الواردات العامة ،
وبهذا الأسلوب نكون قد حققنا الاستغلال لهذه الموارد بالأسلوب الذي يحقق الكفاية
والفعالية الإدارية بعيداً عن تدخل الدولة في إدارة النشاط ، والشيء نفسه يمكن
تطبيقه على أنشطة خدمات المنافع العامة ، فمثلاً : حق النقل الجوي أو البري ،

يمكن للدولة أن تجعله مورداً ماليّاً لها ، وفي الوقت نفسه تتحقق الكفاءة في الإدارة ،
من خلال ما يمكن أن نطلق عليه تمليك إدارة النشاط ، فتقوم الدولة مثلاً : بإنشاء
السكك الحديدية وتوفير العربات سواء أكان ذلك لنقل البضائع أو الركاب ، أي :
توفير الأصول الثابتة ، ثم عرض إدارة تشغيل هذه المنفعة على الأفراد أو الشركات ، مقابل جزء من الدخل العام يتناسب مع ما صرف من أصول ثابتة ، أي : أن
يكون نصيب الدولة من الدخل يعادل قيمة الأصول الثابتة المستثمرة في هذ النشاط
ونسبة إضافية تكون عائداً لاستثمار مال الدولة ؛ ليكون مورداً من موارد الخزينة
العامة ، بهذا الأسلوب : فإن الدولة تحقق أمرين : الأول : توفير الخدمة التي يحتاج
إليها الناس واستغلال الموارد الطبيعية ، وتحقيق عائد مالي يكون رافداً من روافد
الإيرادات العامة .

الثاني : تحقيق الفعالية الاقتصادية والبعد عن البيروقراطية الحكومية في إدارة
الأنشطة الاقتصادية من خلال : تحفيز القوى البشرية ورأس المال المتاح من قبَل
أفراد الأمة ، لتحقيق الفعالية للنشاط الاقتصادي الذي هو ميزة النظام الرأسمالي .

الدليل الثاني : ما رواه بطرق عدة وروايات متعددة الحافظ أبو عبيد القاسم بن
سلام في كتابه الأموال ، فقد أورد عدداً من النصوص حول ما ارتآه عمر بن
الخطاب (رضي الله عنه) ووافقه عليه الصحابة فيما يتعلق بالأراضي المفتوحة من
إبقائها ملكاً عامّاً للمسلمين ، ووضع الخراج عليها ؛ فقد روى عن إبراهيم التميمي
أنه قال : لما فتح المسلمون السواد قالوا لعمر : اقسمه بيننا ، فإنا افتتحناه عنوة ،
قال : فأبى وقال : فمن لمن جاء بعدكم من المسلمين ؟ وأخاف إن قسمته أن تفاسدوا
بينكم في المياه ، قال : فأقر أهـل السواد في أراضيهم ، وضرب على رؤوسهم
الجزية وعلى أراضيهم الخراج ، ولم يقسمها بينهم [7] . إن تصرف عمر (رضي
الله عنه) بإبقاء الأرض للمسلمين وتحصيل خراج عليها ، إنما هدف منه توفير

الموارد المالية للدولة ، بدليل ما أخرجه البخاري عن زيد بن أسلم عن أبيه قال :
سمعت عمر قال : لولا آخر الناس ما افتتحت قرية إلا قسمتها كما قسم رسول الله -
صلى الله عليه وسلم- خيبر [8]، فالعلة التي بنى عليها عمر (رضي الله عنه)
اجتهاده واتخاذه قراراً بوقف الأرض بجعلها ملكاً للمسلمين عامة : هو العمل على
توفير مصدر دائم لدخل الدولة ، حتى يتم الصرف منه على شؤون المجتمع ، هذا
الاجتهاد الذي بنى عليه عمر (رضي الله عنه) حكمه ، إنما كان بناءً على استشارة
الفقهاء وعلماء الصحابة ، فقد أورد الحافظ أبو عبيد القاسم بن سلام رواية أخرى
عن هذا الموضوع بسنده ، قال : أخبرني عبد الله بن أبي قيس ، قال : قدم عمر
الجابيه فأراد قسم الأرض بين المسلمين ، فقال له معاذ :
والله إذاً ليكونن ما تكره ! ؛ إنك إن قسمتها صار الربع
العظيم في أيدي القوم مم يبدون ، فيصير ذلك إلى
الرجل الواحد أو المرأة ، ثم يأتي من بعدهم قوم يسدون من الإسلام سدّاً ، وهم لا
يجدون شيئاً ، فانظر أمراً ليسع أولهم وآخرهم [9].

ووفقاً لذلك التعليل وتلك النظرة الثاقبة للصحابي الجليل معاذ بن جبل (رضي
الله عنه) : اتخذ عمر قراره بإبقاء الأرض ، فأبقى الأرض يجبي ريعها لبيت مال
المسلمين ، فهل يمكن الأخذ بهذا الإجراء فيما يتعلق بالأراضي البور التي تحتاج
إلى إصلاح ، فتقوم الدولة بذلك ، وتهيئها للمستغلين ، وتنال جزءاً من إنتاجها ، مع
إبقاء الأرض لصالح الأجيال القادمة ، وعدم إقطاعها ، وكذا : ما يختص بتمليك
استغلال المنافع العامة ؟ . لكن السؤال الذي يثور هنا هو : كيف يمكن التوفيق بين
هذا والنصوص التي أشارت إلى جواز إقطاع ولي أمر المسلمين تمليك الأرض قبل
إحيائها ، حسب ما جاء في الحديث : الذي رواه هاشم بن عروة عن أبيه أن رسول
الله -صلى الله عليه وسلم- قال : من أحيا أرضاً ميتة فهي له وليس لعرق ظالم
حق [10]، وقوله -صلى الله عليه وسلم- : من أعمر أرضاً
ليست لأحد فهو أحق [11]، وما رواه عبد الله بن أبي بكر

قال : جاء بلال بن الحارث المزني إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فاستقطعه أرضاً فقطعها له طويلة عريضة ، فلما ولي عمر قال له : يا بلال ، إنك استقطعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أرضاً طويلة عريضة قطعها لك ، وإن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لم يكن ليمنع شيئاً يسأله ، وإنك لا تطيق ما في يديك ، فقال : أجل ، قال : انظر ما قويت عليه منها فأمسكه ، ومالم تطق فادفعه إلينا نقسمه بين المسلمين ، فقال : لا أفعل والله ؛ شيء اقتطعنيه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، فقال عمر : والله لتفعلن ، فأخذ منه ما عجز عن عمارته فقسمه بين المسلمين [12] .

إن الأخذ بفكرة إبقاء ملكية الأراضي وحق إبقاء استغلال أنشطة خدمات
المنافع للدولة قياساً على ما عمله عمر مع أراضي البلاد المفتوحة ، يحقق مصلحة
عامة ؛ حيث : محدودية الأراضي البور سواء أكانت قد مُلكت في الماضي وهجرت
ولا يعرف مالكها ، أو لم يتم تملكها وإحياؤها ، على أن يقتصر الإقطاع على ما يتم
إقطاعه لأغراض السكنى ، وأن يكون الإقطاع إقطاع استئجار ، أي : إنه إقطاع
مشروط بالاستغلال ، وإن للمُستَقْطَع له أن يتملك ويتصرف ، لكن بشرط قدرته
على الاستغلال واستمراريته واستثماره في مجاله الذي من أجله منح ، أما في حالة
عجز من أقطع له أو من تملكه بعد من استقطعه وعجز عن استغلاله : فترجع ملكية
الأصل إلى الدولة ، وذلك في حالة عدم وجود أصول استثمارية موضوعة على
الأرض المقطوعة ، وأما في حالة وجود أصول موضوعة لغرض الاستفادة من
الأرض : فتمنح لمن يقدر على استغلالها على أن يعطى المالك غير القادر على
الاستغلال جزءاً من الإنتاج لقاء هذه الأصول الموضوعة وفق القاعدة الشرعية
لاضرر ولا ضرار ، وبهذا نبقي على سريان نصوص أحاديث الإقطاع ، وفي
الوقت نفسه عدم تعطيل الأرض بحجة إقطاعها ، والأخذ بهذا الرأي قد استند فهمه
إلى ما رواه الدارقطني وأبو داود عن عبيد الله بن حميد عن عبد الرحمن الحميدي

أن عامر الشعبي حدثه أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-
قال : من وجد دابة قد
عجز عنها أهلها أن يعلفوها فسيبوها فأخذها الرجل فأحياها
فهي له [13] ، ويمكن
أن يقاس على هذا الحديث الأراضي المستقطعة وغير
المستغلة وأي أصل مملوك لا
يستغل لعجز مالكه عن استغلاله ، بأن تقوم الدولة بمنحه لمن
يقدر على استغلاله ؛
وفق إجراءات تنظيمية تحقق العدالة والمصلحة العامة
للمجتمع المسلم .

ثانياً : الرقابة على أسعار بيع المنتجات السلعية للموارد
الطبيعية والمنافع
الخدمية ، التي مُنح الأفراد تملك منافعها من خلال تشغيل
هذه الأنشطة بوساطة
العمل أو بالعمل ورأس المال ، بحيث تُراعي هذه الأسعار
مصلحة المنتفعين بهذه
السلع والخدمات من ناحية ، وتحقيق عائد مجز لمن يقوم
بالاستثمار ، سواء أكان
ذلك من خلال تقديم المال ، أو الجهد ، لإدارة تشغيل هذه
الأنشطة الاقتصادية من
ناحية أخرى .

والسؤال الذي يبرز هنا : هل يجوز التدخل في تحديد
الأسعار ، أي : تسعير
المنتجات والخدمات ؟ وما هي حدود هذا التدخل في حالة
جوازه ؟ ، وما هي
الوسائل التي هي أكثر فعالية لتحقيق التوازن لحماية مصالح
المستهلكين من ناحية ،
وعدم الإضرار بمصالح المنتجين وبائعي منافع الأنشطة
الخدمية من ناحية أخرى ؟ .

تتطلب عملية حماية المستهلكين التدخل في تحديد أسعار
المنتجات السلعية أو
الخدمية ، وعملية التدخل في التسعير سوف تؤدي إلى تعطيل
فعالية قانون العرض
والطلب ، وبالتالي : حصول الخلل في الأنشطة الاقتصادية ،
لما للتدخل في تحديد
الأسعار من أثار سلبية على فعالية وكفاءة النشاط
الاقتصادي ، كما أن ترك
المستهلكين تحت رحمة المنتجين وبخاصة تلك السلع
والخدمات التي يحتاج إليها
الناس في غالبيتهم فيه ظلم لهم وفتح لباب الاحتكار ، لقد
وردت أحاديث تمنع

التدخل في التسعير ؛ من ذلك : ما رواه أبو داود والبيهقي عن أبي هريرة : أن
رجلاً جاء إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، فقال : يا رسول الله ، سعّر ،
قال : بل أدع ، ثم جاءه رجل ، فقال : يا رسول الله سعّر ، قال : بل الله يرفع
ويخفض ، وإني لأرجو أن ألقى الله وليست لأحد عندي مظلمة [14] ، كما روى
ابن ماجة عن أنس بن مالك ، قال : غلا السعر على عهد رسول الله -صلى الله
عليه وسلم- فقالوا : يا رسول الله ، قد غلا السعر فسعّر لنا ، فقال : إن الله هو
المسعر القابض الباسط الرازق ، وإني لأرجو أن ألقى ربي وليس أحدٌ يطلبني
بمظلمة في دم ولا مال [15] .
إن هذه الأحاديث تؤكد أن الإسلام لا يحبذ التدخل في التسعير ، بل يترك
الأمر لقوى السوق ، وهي التي تصحح الاختلال ما بين العرض والطلب ، لكن
هناك آثاراً ذكرت تصرفات صدرت عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قد يفهم
منها معارضة هذه الأحاديث ، ومن ذلك : ما رواه الإمام مالك والبيهقي عن سعيد بن
المسيب : أن عمر بن الخطاب مر بحاطب بن أبي بلتعة وهو يبيع زبيب له بالسوق ، فقال له عمر بن الخطاب : إما أن تزيد في السعر ، وإما أن ترفع من سوقنا وفي
رواية للبيهقي : أن عمر بن الخطاب مر بحاطب بسوق المصلى وبين يديه
غرارتان فيهما زبيب ، فسأله عن سعرهما ، فسعر له مدين لكل درهم ، فقال له
عمر (رضي الله عنه) حُدّثنا بعير مقبلة من الطائف تحمل زبيباً ، وهم يعتبرون
بسعرك ، فإما أن ترفع في السعر وإما أن تدخل زبيبك البيت ، فتبيعه كيف شئت ،
كما روى الإمام مالك عن سالم بن عبد الله عن أبيه : أن عمر بن الخطاب (رضي
الله عنه) يأخذ من النبط من الحنطة والزبيب نصف العشر ، يريد بذلك أن يكثر
الحمل إلى المدينة ، ويأخذ من القطنية العشر ، كما روى البخاري : أنهم كانوا
يشترون الطعام من الركبان على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، فبعث

عليهم من يمنعهم أن يبيعوه حيث اشتروه ، حتى ينقلوه حيث يباع الطعام [16] ،
وذكر البيهقي في رواية : أن الغاية من منع البيع : حتى ينقلوه إلى سوقه ؛ لئلا
يغلو الطعام هناك على من يفد ، وأنه في ذلك الموقع أرخص ، يتضح من هذه
الأحاديث أن هناك نوعاً من التدخل في التأثير على التسعير ، بل إن ما طلبه عمر
(رضي الله عنه) من حاطب ابن أبي بلتعة (رضي الله عنه)
يوحي بالتسعير ؛ حيث : طالبه برفع السعر أو رفع بضاعته من السوق ، وأن هذا قد يعارض ما جاء عن
الرسول -صلى الله عليه وسلم- في عدم استجابته لطلب الناس بالتسعير للوهلة
الأولى .

ولكن واقع الأمر : أن عمر (رضي الله عنه) في جميع ما ورد عنه لم يقم
بالتسعير وتحديد السعر ، وهو الذي رفضه الرسول -صلى الله عليه وسلم- ، وإنما
اتبع أساليب تنظيمية مراعاة للمصحلة العامة ، فهو لم يحدد سعراً معيناً ألزم به
حاطب بن أبي بلتعة ، ولكنه حينما علم أن سعره سوف يضر بجلب السلعة في
المستقبل ؛ لأن عدم تحقق سعر مجز للجالب للسلعة سوف يؤدي ولابد إلى الامتناع
عن الجلب في المستقبل ؛ وهذا فيه ضرر على توفير الكميات المعروضة ، مما
سوف يؤدي إلى ارتفاع الأسعار ، لهذا : أمره بأن يرفع بضاعته من السوق أو يرفع
سعره ، وهذا ليس من باب التدخل في السعر ، وإنما هو أسلوب من أساليب الرقابة
السعرية ، وهذا أمر يختلف عن التسعير وتحديد السعر ، وقد مارس هذا الفعل
الرسول -صلى الله عليه وسلم- ، كما جاء في حديث البخاري : حينما منع الناس
من تلقي الجلب ، ومن شراء الطعام قبل أن يجلب في مكان البيع حتى يتحقق
التنافس الكامل بين المشترين والبائعين ، فلا يُحْمَلُ غبن لأي طرف .

لهذا : نجد أن الإسلام لا يتدخل في التسعير ، ولكنه يتدخل في التأثير على
العوامل المؤثرة في جانبي العرض والطلب .

إن السؤال الذي يمكن طرحه هو : إذا اتّبعَ المنهج الإسلامي كما أشرنا إليه فيما سبق من حيث : مشاركة الدولة استغلال الموارد الطبيعية ، وممارسة بيع المنافع الخدمية ، مع إعطاء عنصري العمل ورأس المال حق مشاركة الدولة وتوفير المرونة للقطاع الخاص لممارسة دوره الفعال في إدارة الأنشطة الاقتصادية ، مع الإبقاء على دور الدولة فاعلاً ومؤثراً سواء في الإبقاء على التملك ، أو التدخل في الرقابة على الأسعار بدون التسبب في إضعاف المبادأة الفردية .. فكيف يتم المحافظة على توفير الاحتياجات الأساسية للأفراد ذوي الدخول الضعيفة مع الارتكاز على توفير الظروف الملائمة لتحقيق العائد المجزئ لمن فُتح لهم مجال العمل في الأنشطة الاقتصادية المرتبطة بالموارد الطبيعية وبيع المنافع الخدمية ؟ .

إن الإسلام حينما وضع منهجيته لتشجيع القوى الفاعلة من القوى العاملة وأصحاب رؤوس الأموال مع اتباع سياسة التحفيز كما أوضحناه فيما سبق لم يترك معالجة أوضاع كثير من الفئات التي تحتاج إلى هذه المنتجات والخدمات مع كونها لا تستطيع شراء هذه السلع والمنافع لقلة مواردها ، فقد وضع منهجاً ماليّاً من خلال أساليب الإنفاق من الموارد العامة للدولة .

يتميز الإسلام في منهجيته في توزيع موارد الدولة بتقسيم الموارد المالية للدولة إلى قسمين : القسم الأول : ما يتعلق بالزكاة ، فقد خصصها للإنفاق على أفراد المجتمع بقصد تحقيق الرفاه الاجتماعي بحيث : لا تنفق موارد الزكاة إلا للأصناف الثمانية التي حددها القرآن ، أما المصالح العامة وهي القسم الثاني : فيتم الإنفاق عليها من الموارد العامة للدولة ، ومن ضمن هذه الموارد العائد من مشاركات الدولة في استغلال الموارد الطبيعية والعائد من تأجير الأصول الثابتة الخاصة ببيع المنافع العامة [17] .

(1) أخرجه ابن ماجة : كتاب الرهون ، باب : إقطاع الأرض والعيون ، ح/ 2475 ، صحيح سنن ابن ماجة ح/2006 ، ج2 ص6465 وحسنه الألباني .

(2) أخرجه ابن ماجة : كتاب الرهون ، باب : المسلمين شركاء في ثلاثة ، ح/2472 ، صحيح سنن ابن ماجة ج2 ص64 ، ح/2004 ، قال الألباني : صحيح دون ثمنُهُ حرام .
(3) سنن ابن ماجة : كتاب : الرهون ، باب : المسلمون شركاء في ثلاثة ، ح/2473 ، صحيح سنن ابن ماجة ح/2005 ، ج2 ص64 .
(4) سنن أبي داود : كتاب الإمارة ، باب في إقطاع الأرضين ، ح/3070 ، وقال الألباني : ضعيف الإسناد ، وانظر ضعيف سنن أبي داود ص309 ومقيد الجمل : أي : مرعى الجمل ومسرحه ، فهو لا يبرح منه ولا يتجاوزه في طلب المرعى - البيان .
(5) البخاري ، كتاب : الحرث والمزارعة ، باب : المزارعة بالشطر ونحوه .
(6) البخاري ، كتاب : الحرث والمزارعة ، باب : المزارعة مع اليهود ، ح/ 2331 ، الفتح : ج5 ص19 .
(7) البخاري ، كتاب : الحرث والمزارعة ، باب : المزارعة مع اليهود ، ح/ 2331 ، الفتح : ج5 ص19 .
(8) البخاري ، كتاب : الحرث والمزارعة ، ح/2334 وبعد فهذا الطرح اجتهاد مني ، أرغب أن يتم إثارة الحوار حوله حتى تتلاقح الأفكار للخروج برأي سديد في مثل هذه الموضوعات المستجدة .
(9) البخاري ، كتاب : الحرث والمزارعة ، ح/2334 وبعد فهذا الطرح اجتهاد مني ، أرغب أن يتم إثارة الحوار حوله حتى تتلاقح الأفكار للخروج برأي سديد في مثل هذه الموضوعات المستجدة .
(10) البخاري : كتاب : الحرث والمزارعة ، باب : من أحيا أرضاً مواتاً ، رواه البخاري بصيغة التحريض في ترجمة الباب ، (انظر الفتح ج5 ص23) .
(11) البخاري : كتاب الحرث والمزارعة ، باب من أحيا أرضاً مواتاً ح/ 335 .
(12) أخرجه مالك في الموطأ ، والدارمي .
(13) أخرجه أبو داود : ح/3456 وصححه الألباني ، انظر صحيح سنن أبي داود ح/3950 ، ج2 ص67 .
(14) أخرجه أبو داود ، كتاب : المبايعة ، باب : في التسعير ، ح/3450 ، وصححه الألباني : صحيح أبي داود ج2 ص611 .
(15) أخرجه ابن ماجة ، كتاب : التجارات ، باب : من كره أن يسعر ، ح/ 220 ، وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة : ج2 ، ص1415 .
(16) البخاري : كتاب البيوع ، باب : ما ذكر في الأسواق ، ح/2123 .
(17) لمزيد من معرفة هيكلية الموارد العامة وأساليب تحديد طرق إنفاق الموارد العامة للدولة الإسلامية وأسلوب ومنهجية الإسلام في معالجة قضية إدارة المالية العامة للدولة على ضوء الظروف والمعطيات المعاصرة يراجع كتابنا (المالية العامة على ضوء الشريعة الإسلامية) .

نص شعري

يارب

مروان كجك

لَكَ العُتْبَى [1] لَقْد صِرْنَا وإلى ضَعْفٍ وإعْياءِ
وأضْفادٍ تَدُورُ بنا على أعتَابِ أعداءِ
نَرُومُ العِزّ عندَهُمُ وهُمْ بَوّابةُ الداءِ
نَظُنّ النّصْرَ بالإغضا ء عن كُفْرٍ وأخْطاءِ
وعُدْوانٍ يَلُفّ النا سَ مِنْ دانٍ إلى نائي
ونَخْطُبُ [2] وُدّ من كانوا بني حِقْدٍ وَبَغْضاءِ
فَتأخُذُنَــا خَطَايَانَــا إلى ذُلّ ولأوَاءِ [3]
وننسَى أننا كُنّا شِفَا مِنْ كُلّ بأساءِ
وأنّا أمْةٌ التّحْرِي رِ من ألِفٍ إلى ياءِ
* * *
لكَ العُتبى ، لَقَدْ حِرْنا لِمَيْنٍ [4] رائحٍ جائي !

يُقامرُنا على الأحلا مِ في خُبْثٍ وإلْهاءِ
يقولُ : غَداً ، وأي غَدٍ نقَدّمْهُ لأبناءِ ؟
وهذا الحاضِرُ المنكُو د يَعْطِبُ كلّ أشيائي
يُبَعْثِرُها يُشَتّتُهـا يُقَيّدْهـا لأعدائـي
***
لكَ العُتْبَى سُنُونَ ال قَحْطِ قَدْ عَاثَتْ بأرجائي
تَلُفّ الناسَ بالآثا مِ مِنْ ذَلْقٍ [5] لِتأتاءِ
ولمْ تَبْخَلْ على أحَدٍ بإعْنات وإزْراءِ [6]
فكُلّ القَوْمِ طُعْمَتُهاً ولوْ جَنَحُوا لإغْماءِ
وتخشى صَحْوَهُم يَوْماً على إيقاع حَدّاءِ [7]
يَسُوسُ الناسَ بالحُسْنى ويأتيهـمْ بأنبـاءِ
***
لكَ العُتْبَى ولوْ عَصَفَتْ أعاصيرٌ ببَيْدائي
أو ازْدَحَمَتْ على بابي جِنَاياتي وأرزائي
أو اقْتَحَمَتْ جُنُودُ البَغْ يِ أوطاني وأحيائي
أو اختَبَأتْ لِيَ الأهْوا لُ في نفسي وأهوائي
وأقْبَلَ كُلّ جبارٍ بأوْشابٍ وغَوْغَاءِ [8]
وسارَ بِهم إلى قتلي وتمزيقي وإفنائي
ولو مَلَكُوا نواصِي الأرْ ضِ أو صَعِدوا لجَوْزاءِ
فَلَنْ أرتَدّ عن ديني ولا أهـلي وأنحائي
ولن أرضَى سِوى الإسلا مِ مِنْهاجاً لأبنائي
فَلَيلُ الظلمِ ، مهما طا لَ ، لنْ يَرْقى لعْليائي
ولَنْ يَحْظى بما يَبْغِي هِ من قَهْرِي وإحْنَائي

---
(1) العتبى : الرضى .
(2) نخطب : نطلب .
(3) اللأواء : الشدة .
(4) المين : الكذب .
(5) ذلق : فصيح اللسان .
(6) الإعنات : الشدة ، الإزراء : التحقير والتهوين والعيب .
(7) حداء : منشد .
(8) الأوشاب : الأخلاط .

من قضايا المنهج

لمحات في فن الحوار
الحلقة الثالثة
[معوقات الحوار]

محمد محمد بدري

المتأمل في أكثر حواراتنا الإسلامية يجد أن بعضنا يحمل في كيانه جراثيم
تمنع الحوار الصحي ، وتعوق تنمية أفكارنا وتلاقحها خلال الحوار ! !

ومن هنا : فإن كل خلاف في حواراتنا لا يُنتج إلا حرق جسور التواصل بيننا ، لنصل إلى حالة اللا حوار .. ومن ثم : الفرقة والتناحر ..

ومن هذه الجراثيم أعني المعوقات ما يلي :

التعصب والحزبية :

جناحا التعصب هما : ضعف النفس وجهل العقل .. ومن ثم : يؤدي التعصب إلى الحزبية التي يبتلى بها كثير من المنتسبين إلى طائفة في العلم أو الدين أو إلى رئيس معظّم عندهم ، فإنهم لا يقبلون من الدين لا فقهاً ولا رواية إلا ما جاءت به طائفتهم .[1] ولا يميلون إلا إلى الاجتماع برفقائهم في الطائفة نفسها أو الحزب الذين يحملون أفكارهم نفسها ، فإذا اجتمعوا بمن يخالفونهم في بعض الآراء ؛ فهم معزولون عنهم بحاجز نفسي هو اهتمامهم بسحق المخالف وإفحامه ، بل وإذلاله ! ! وهم لا يرون الوجود حولهم إلا من خلال هذا اللون الحزبي الذي يوقعهم في الكثير من الأخطاء .. فهم مثلاً : يرون أن ما عندهم هو الحق المطلق ، وأن ما عند الآخرين هو الخطأ المطلق .. وهذا يدفعهم إلى التعصب ضد الآخرين والتحامل عليهم ، لأن هؤلاء الآخرين لا يمكن عندهم إلا أن يكونوا خبيثين ، ليس ما عندهم إلا خطأ لا يحتمل الصواب ! ! ومن ثم : فهم لا يرون الاستماع إلى هؤلاء الخبثاء الجهلاء ! فضلاً عن مناقشة آرائهم وعرضها على بساط البحث والنظر .. بل كل جهد الحزبيين إنما يوجهونه للدفاع عن آرائهم ، واستحضار الأدلة والبراهين للاحتفاظ بها .

وهكذا يتحول الحوار بينهم وبين الآخرين إلى سباق يحاولون فيه إسماع الآخرين ما يستطيعون من الأفكار التي يحملونها ، في جو من النزال و المصارعة الحوارية التي تواجه فيها كل كلمة بضدها ، وكل فكرة بما يقابلها ، ويقترن فيها رفع الصوت مع ضعف الحجة ، بل إن بعضنا قد يلجأ إلى تخانة الأحبال الصوتية تعويضاً عن عمق الحجة ، وكما قيل بحق الماء العميق أهدأ إذ تجد الصخب

والضجيج على الشاطئ حيث الماءالضحل ولا جواهر ولا درر ، وتجد الهدوء
والسكون لدى الماء الأعمق حيث النفائس والكنوز [2] .
إن الضحالة الفكرية وغياب نفائس الأدلة لدى الحزبيين مع التعصب
المذموم .. كل ذلك : من أكبر معوقات الحوار ، ومن أهم أسباب تعكير صفو المتحاورين وترسيخ الجهالة في قلوب العوام والمقلدين ، بل أكثر الجهالات إنما رسخت في قلوب العوام بتعصب جماعة من جهال الحق ، أظهروا الحق في معرض التحدي والإدلال ، ونظروا إلى ضعفاء الخصوم بعين التحقير والازدراء، فثارت من بواطنهم دواعي المعاندة والمخالفة ، ورسخت في قلوبهم
الاعتقادات الباطلة ، وتعذر على العلماء المتلطفين محوها مع ظهور فسادها [3] .
إننا نرى في جلسات الحوار بين الحزبيين كيف تتزاوج الأفكار دون أن
تنجب أفكاراً جديدة .. وما ذلك إلا لأن الحزبية تؤدي إلى العقم الفكري الذي لا يرى
في الحوار إلا لوناً من ألوان النزاع الذي يجب تجنبه إذا أردنا أن تبقى علاقاتنا
وصلاتنا .. وهذا من عجائب التفكير الحزبي ، وأعجب منه : أن الحزبيين إذا
وجدوا آية من كتاب الله توافق رأيهم أظهروا أنهم يأخذون بها ، وإذا وجدوا آية
نظيرها تخالف قولهم لم يأخذوا بها ، وطلبوا لها وجوه التأويل وإخراجها عن
ظاهرها حيث توافق رأيهم ، وهكذا يفعلون في نصوص السنة سواء : إذا وجدوا
حديثاً صحيحاً يوافق قولهم ، أخذوا به ، وقالوا : لنا قول رسول الله -صلى الله
عليه وسلم- كيت وكيت ، وإذا وجدوا مئة حديث صحيح بل وأكثر تخالف قولهم ،
لم يلتفتوا إلى حديث منها [4] .
إن من يدخل ساحة الحوار بقوالب فكرية معدة مسبقاً وانتماءات حزبية مقررة
سلفاً : إنما يدخل الحوار لتقرير رأيه ، والمدافعة عنه ، والتعصب له ، وليس عنده
الاستعداد أبداً أن يتنازل عن رأيه ، حتى وإن تبين له خطؤه .. ومن هنا : تتصدع
جسور التواصل بين المتحاورين ، ولا يصل الحوار إلى أي نتيجة بحال .

إن الحوار الفعال يحتاج دائماً إلى طاقة عالية من الحب ، تحرر العقل من الخوف ، وتوفر الأمان الفكري الذي يسمح بتبادل الأفكار على أساس من رؤية واضحة ومتحررة من القيود الفكرية ، وفي مقدمتها قيدا التعصب والحزبية .

التصنيف المتعسف :

يمثل هذا المرض الحواري (التصنيف المتعسف) لوناً من ألوان الإعاقة الذاتية لسير الحوار في طريقه الواضحة المستقيمة .. ذلك أن أصحاب هذه الطريقة في التفكير يسيطر عليهم التصنيف المتعسف وغير الحقيقي للآخر ، ويجعلون من هذا التصنيف الخاطئ ما يمكن أن نطلق عليه الفلتر الذي يتلقون من خلاله ما يعرضه عليهم الآخر من أفكار ، بل ليس عندهم أدنى استعداد لتغيير هذا الفلتر مهما أتى الآخر من أقوال أو أفعال تدل على تغير أفكاره ! ! فالحوار يبدأ بالتصنيف وتُفسر الأقوال والأفعال بناءً على هذا التصنيف حتى ولو كانت لا تدل عليه ! !

ومثل هذه الحال يشبه تماماً ما حكاه الإمام الشاطبي (رحمه الله) عن الإمام الشهير عبد الرحمن بن بطة الحافظ مع أهل زمانه ، إذ حكى عن نفسه فقال : عجبت من حالي في سفري وحضري مع الأقربين مني والأبعدين ، والعارفين والمنكرين .. إن صدقت من دعاني لموافقته سمّاني موافقاً ، وإن وقفت في حرف من قوله أو في شيء من فعله سماني مخالفاً ، وإن ذكرت في واحد منها أن الكتاب والسنة بخلاف ذلك وارد سمّاني خارجيّاً ، وإن قرأت عليه حديثاً في التوحيد سماني مشبهاً ، وإن كان في الرؤية سماني سالميّاً ، وإن كان في الإيمان سماني مرجئيّاً ، وإن كان في الأعمال سماني قدريّاً ، وإن كان في المعرفة ، سماني كراميّاً ، وإن كان في فضائل أبي بكر وعمر ، سماني ناصبيّاً ، وإن كان في فضائل أهل البيت ، سماني رافضيّاً ، وإن سكت عن تفسير آية أو حديث فلم أجب فيهما إلا بهما ،

سماني ظاهريّاً ، وإن أجبت بغيرهما ، سماني باطنيّاً ، وإن أجبت بتأويل ، سماني
أشعريّاً وإن جحدتهما ، سماني معتزليّاً ، وإن كان في السنن مثل القراءة ، سماني
شافعيّاً ، وإن كان في القنوت ، سماني حنفيّاً ، وإن كان في القرآن ، سماني حنبليّاً ،
وإن ذكرت رجحان ما ذهب كل واحد إليه من الأخيار إذ ليس في الحكم والحديث
محاباة قالوا : طعن في تزكيتهم ..

ثم أعجب من ذلك أنهم يسمونني فيما يقرؤون عليّ من أحاديث رسول الله -
صلى الله عليه وسلم- ما يشتهون من هذه الأسامي ، ومهما وافقت بعضهم عاداني
غيره ، وإن داهنت جماعتهم أسخطت الله (تبارك وتعالى) ، ولن يغنوا عني من الله
شيئاً [5] .

فانظر (رحمك الله) إلى تلك الحال التي حكاها الإمام ابن بطة ، وقارنها
بواقعنا .. هل تجد فرقاً ؟

إن الكثيرين منا يدخلون الحوار مع الآخر وقد صنفوا هذا الآخر على أنه من
معسكرات الخصوم .. ومن ثم : يبدؤون في مصارعته عبر حوار شعاره : قاتل أو
مقتول ، تستخدم فيه الأدلة لتشويه الآخر واتهام نواياه والطعن في مقاصده ، ثم
يحشد المحاور مع الأدلة الأتباع المقربين عبر تعبئة عامة مفادها أن من ليس منا
فهوعلينا وأنه لا يمكن بناء كياننا إلا عبر تدمير كيانات الآخرين ! ! .

ويبدأ الأسلوب العجيب في التصنيف ؛ فيدان الفرد عبر تصنيف خاطئ
متعسف ، ثم يدان كل شخص ينتسب إليه مجرد انتساب .. فتكون النتيجة الحتمية
هي ضمور الحوار الإيجابي ، ثم يتطور الأمر عبر الروح الانفعالية ليصل إلى
موت الحوار تماماً .. ومن ثم : تحدث الفرقة المقيتة والتصارع المخزي .. تلك
الفرقة وذلك التصارع اللذان ينتجهما الزهد في سماع الآخر ، فضلاً عن الرغبة في
التعاون معه بسبب من أخطر أمراضنا الحوارية وهو : التصنيف المتعسف .

الذوات المتورمة :

الإحساس بالذات في إطار إنجاز حقيقي ، قد يكون أمراً مقبولاً .. أمّا الشعور
بتضخم الذات مع العجز والفشل فهو ما نقصده بمرض الذوات المتورمة ؛ يرمونهم
بالسطحية ، وضيق الأفق ، والخلو من عمق الفهم .. بل إنهم يرون الآخرين
قاصرين في تفكيرهم ، لم يصلوا بعد إلى النضج الذي وصلوا هم إليه ! ! .

إنهم يرون أنفسهم الأساتذة الذين يفهمون كل شيء ، ويعرفون كل الأمور ! !

إنهم يرون أنفسهم أساتذة يجب أن يُعَلِّموا ولا يتعلّموا ، ومن ثم : لا يقبلون
الاستماع إلى الآخر أيّاً كان هذا الآخر وإذا جلس أحدهم في حوار مضطرّاً ، فهو
يحس في أعماق نفسه أنه أعلى من المكان الذي يجلس فيه ، وأنه لا حاجة له في
سماع ما يقوله الآخر ! !

إن الواحد من هؤلاء يمارس ما لا يصلح له من العلوم دون تأهل اغتراراً
بقدرته وذهولاً عن حقيقة علمه ومجاله ، وتسمعه يتكلم فيما لا يحسنه ، ولم يبلغ
الدرجة التي تؤهله للخوض فيه وإبداء الرأي في مسائله ، فيضع الأمور في غير
موضعها فيضل ويضل [6] . ويدفعه تورم ذاته إلى ترك الحق الذي عليه الآخر ،
كما أخبر بذلك الصادق المصدوق -صلى الله عليه وسلم- : الكبر : مَنْ بَطِرَ الحق
وغَمَطَ الناس [7] ، ولا شك أن هذا الصنف من المحاورين لا يمكن أن يكون
حوارهم إلا فرصة لتورم ذواتهم ، وليس لحل المشكلات أو الاختلافات المعروضة
للحوار ، ولذلك تراهم يستبدون بآرائهم ، ويسرقون الأدلة والبراهين لتسفيه الآخر
والتهكم منه والاستخفاف به ، مع اعتقاد خفي بأن ما يصدر عنهم سداد لا خطأ فيه ،
وأن ما يصدر عن الآخرين خطأ لا سداد فيه ، ومن ثم : يعز عليهم الرجوع عما هم
عليه ، فيبقون على أخطائهم لا يجدي معهم تفهيم ولا محاورة ! !

إن المحاور أجدر الناس بالبعد عن الكبر بشتى صوره ، فإن الطرف الآخر إذا

رأى منه ازدراءً له واحتقاراً بالقول أو الفعل فإن ذلك ينفره منه ، ويؤدي إلى
كراهته وكراهة ما عنده من الحق ، لأن الناس جبلوا على محبة المتواضعين
وكراهية المتكبرين [8]**، وما أفسد علينا أكثر حواراتنا إلا التعالي على الآخرين**
وتجاهلهم والزهد فيما عندهم بسبب أحد أمراضنا الحوارية ، وهو مرض تورم
الذات .

النظرة الأحادية :

النظرة الأحادية هي لون من ألوان الأمراض الحوارية التي يمكننا أن نطلق
عليه : عمى الألوان ، حيث تسيطر على صاحبه فكرة واحدة ، يرفض ما عداها من
الأفكار .. ففكرته في حقيقتها سجن يمنعه من الاطلاع على أفكار الآخرين ،
ونظرته عمى يحول بينه وبين رؤية البدائل المطروحة من الآخرين ، فضلاً عن
الإفادة منها .

إن أصحاب النظرة الأحادية يرون أنهم يملكون كل المعرفة ، بينما لا يرون
أن الآخرين يمكن أن يملكوا ولو جزءاً من هذه المعرفة .. وحالهم في ذلك يشبه حال
من ذكرهم الإمام الغزالي في الإحياء في قصة رمزية تستحق التأمل مفادها : أن
ثلاثة من العميان أُدخلوا على فيل ولم يكونوا عرفوه من قبل فوضع أحدهم يده على
رجله ، ووضع الآخر يده على ذيله ، ووضع الثالث يده على بطنه ، فلما خرجوا
سألوهم : ما الفيل ؟ فقال الأول : الفيل : كسارية المسجد ، وقال الآخر : الفيل :
كخرطوم طويل به شعر كثيف ، وقال الثالث : الفيل : الجبل العظيم الأملس ..
فأدخلوا مرة أخرى على الفيل ، وأمسكوا بجميع أجزائه ، وعندها ضحكوا من
تعريفاتهم السابقة للفيل ، واستطاعوا أن يصفوه على حقيقته .

وهكذا أصحاب النظرة الأحادية ، يرى الواحد منهم جزءاً من الحقيقة ، ويظن
أنه يرى كل الحقيقة ؛ فيصف الأمور بغير أوصافها .. فإن حدّثه الآخر عن بقية

الحقيقة التي يجهلها ، لم يكلف نفسه مجرد محاولة التعرف على ما يريد الآخر قوله ، بل يَنْقَض عليه متهماً إياه بالضلال والانحراف والجهل .. ولا يترك له فرصة
الحوار ، بل يسعى لمصادرة آرائه والحجر عليه ، فيصم أذنيه ويغلق عينيه ، فلا
يسمع له رأياً ولا يقبل له طرحاً .. هكذا .. مهما بلغ الآخر من الفهم والتخصص
فيما يحدثه فيه ويعرضه عليه ! !

إن النظرة الأحادية هي نظرة تفتقد إلى الشمولية والتوازن وضبط النسب ،
ولذلك : فهي من المعوقات الكبيرة في طريق نجاح حواراتنا ، فهل نتخلص منها ؟

الحجة الدائرية :

إذا كانت الحجة الرأسية هي إحدى ميزات الحوار .. وكانت الحجة الأفقية
هي من عيوب الحوار [9] ، فإن من معوقات الحوار ما يمكن أن نطلق عليه :
الحجة الدائرية **.. فما هي تلك الحجة ؟**

إن الحوار مثلاً يكون حول المستوى التربوي لأفراد الحركة الإسلامية ،
فيطلق أحد المتحاورين حكماً عامّاً بأن المعاصرين منهم ليسوا على مستوى
القدامى .. فيعترض الثاني ويسمي اثنين أو ثلاثة من أفراد الحركة الإسلامية المعاصرين .. وهنا يقول الأول : نعم .. ولكني لا أرى أن من ذكرتهم من المعاصرين بالمعنى الصحيح .. فيجيبه الثاني : **وكيف تميز المعاصرين من القدامى ؟** فيرد الأول : باستطاعتك أن تعرفهم
بمستواهم التربوي الفائق !

وهكذا .. يعود الحوار إلى المكان نفسه الذي بدأ منه وكأنه يسير في دائرة ! ! .

ولا شك أن أصحاب هذه الحجة الدائرية يغلب عليهم التنظير والسفسطة ، مع
قلة من طرق مسدودة .

ومن هذه المغالطات الحوارية : أن يعمد أحدهم إلى فكرة الآخر فيقطعها أجزاءً
صغيرة ، ثم يخضع كل جزء لامتحان دقيق ليظهره بلا قيمة وبلا فائدة ، فإذا انتهى
من جميع أجزاء الفكرة خلص إلى تفاهة فكرة الآخر على الجملة ! !

ومن مغالطات أصحاب الحجة الدائرية : أنهم يحاولون إحراق الجزئيات

بعرض الكليات .. فإذا تحدث المحاور عن ضرورة الحجاب مثلاً ، تأوه هؤلاء
وبدؤوا في عرض آلام الأمة وأحزانها ليحيدوا عن مواجهة الموضوع الأساس
للحوار [10].

ومن مغالطاتهم أيضاً : أن يستدل الواحد منهم على ما يراه بمؤهلاته العلمية ،
أو قناعته الشخصية ، أو يمينه المغلظة .. هكذا ، وكأن مؤهلاته تصلح بديلاً عن
الحجة الواضحة .. أو أن قناعته الشخصية يمكن أن تحل محل الفكرة المقنعة .. أو
أن يمينه المغلظة يمكن أن تكون دليلاً ؟ !

وهكذا تتعدد المغالطات الحوارية من الاحتجاج بالواهيات من الأدلة إلى
الاحتجاج بالكثرة من الدهماء على الباطل لمجرد كثرتهم .. إلى غير ذلك .

ومن طرائف هذا الصنف من المحاورين : ما حكاه الماوردي (رحمه الله) قال : رأيت رجلاً يناظر في مجلس حفل ، وقد استدل عليه خصمه بدلالة صحيحة ،
فكان جوابه أن قال : إن هذه دلالة فاسدة ؛ ووجه فسادها أن شيخي لم يذكرها ، وما
لم يذكره الشيخ لا خير فيه ! ! [11].

فتأمل (رحمك الله) هذه الحجة وأمثالها مما لا يفيد معها منطق ولا يجدي معها
برهان .. ألا ترى أن الحوار لا يمكن معها الاستمرار فيه ؟ وأن النتيجة البدهية لها
هي دوران الحوار في حلقة مفرغة بسبب من ترك محكمات الأدلة إلى متشابهاتها ،
بل إلى ما ليس من الأدلة ، وإنما هو حجة وهمية نطلق عليها جدلاً الحجة
الدائرية ...

***وثمة معوقات أخرى لا توقف الحوار فقط ، بل يصبح الحوار معها أمراً**
مستحيلاً ، نذكر منها أحدها لكي ندرك أنه مع التزامنا بضوابط الحوار ، وإتقاننا
لأساليبه ، ومعرفتنا بمعوقاته .. فإن كل هذا لا يعني بالضرورة قبول الآخر لما
نقول من أفكار أو نعرض من آراء ..

وهذا العائق هو ..

كراهية الآخر :

في بعض الحوارات يظهر الحق جليّاً ، ولكن يبقى صراع الآخر قائماً بتأثير

عوامل نفسية لا يجدي معها دليل ولا منطق .. ومن هذه العوامل النفسية : كره
المحاور لمن يحاوره ، ذلك الكره الذي يدفعه إلى رفض ما عنده وإن كان صواباً ..
وذلك كحال اليهود مع النبي -صلى الله عليه وسلم- ؛ فقد كانوا يعرفون الحق قبل
ظهوره -صلى الله عليه وسلم- ، فلما جاءهم هو به لم ينقادوا له حسداً وكرهاً .

إن من يدخل الحوار وقد انطوت نفسه على كره الآخر تراه يشتد في الحوار
حول ما يعرضه الآخر عليه من أمور لو أتته من غير هذا المحاور لقبلها بلا
جدال .. ومن هنا : فإن أمثال هذه الحوارات تفتقد الاعتماد على الحجة ، بل هي في الحقيقة حوارات (طرشان) لا يسمع طرفٌ فيها الآخر ، وإنما يتفنن كل طرف في أساليب العداء تجاه الآخر ، تلك الأساليب التي تبدأ بوصم المخالف بأقبح الألقاب وأحط الأسماء ، ثم تنتقل خطوة أخرى في العداء : فيبدأ المكر والكيد والتربص بأمر السوء حتى يصل العداء إلى أسلوب لأقتلنك حيث يرى الآخر أن قتل محاوره هو البديل للحجة والبيان ، فيحل السيف والسنان محل القلم واللسان ، وتصبح المواجهة الوحشية والإرهاب والعدوان هي وسائل التحاور .. أو إن شئت قلت : وسائل فرض الرأي على الآخر ..

وهكذا يعود الحوار إلى جاهلية الفكر التي واجهها رسول الله -صلى الله عليه
وسلم- بالدعوة لتدبر الأمور والتفكر فيها ، بينما يريد من يتربص بنا السوء من بني
جلدتنا أن يرجعونا إلى التحاور وفق ضوابطها في الصراع والتناحر ، وعبر
أساليبها التي تحرق جسور التواصل بين المتحاورين لتصل بهم إلى الفرقة والتشرذم
والشتات والعار ..

وبعد ..

فهذه المقالة ليست رأياً لي أسجله ، وإنما هي محاولة للمشاركة في تغيير واقع
حواراتنا عن طريق الكلمة المكتوبة .. ولست أدعي لهذه المحاولة الكمال ، وإنما
هي خطوة على الطريق يعوزها التواصل المستمر .

فلتكن هذه المقالة دعوة للكتابة المستمرة والتذكير الدائم بقواعد الحوار وفنون
التحاور .

ولتكن هذه المقالة وصية لي ولإخواني بعدم الانقطاع عن الكتابة في هذا
الموضوع المهم تحت دعوى أننا عذرنا أنفسنا ، وأدينا أمانة الكلمة بما كتبناه ذات
مرة حول لمحات في فن الحوار .

---

(1) ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم ، ص8 .
(2) انظر : أصول الحوار ، الندوة العالمية للشباب المسلم ، ط3 سنة 1408 هـ ، ص76 .
(3) الشاطبي : الاعتصام ، ج2 ، ص230 .
(4) ابن القيم : إعلام الموقعين ، ج2 ، ص214 ، بتصرف .
(5) الشاطبي : الاعتصام ، ج1 ، ص28 - 29 .
(6) محمد العبدة : مقدمة في أسباب اختلاف المسلمين ، ص104 .
(7) أخرجه أبو داود : كتاب اللباس ، باب ما جاء في الكبر ، وقال الألباني : صحيح الإسناد (صحيح الجامع الصغير 4608) ؛ انظر صحيح سنن أبي داود ، ج2 ، ص177 .
(8) د محسن عبد الناظر : الحوار مع أهل الكتاب ، ص171 ، بتصرف .
(9) راجع إن شئت : (ضوابط الحوار) .
(10) د طارق الحبيب : كيف تحاور ؟ ص72 ، بتصرف .
(11) الماوردي : أدب الدنيا والدين ، ص78 .

سياسة شرعية

العلاقات والحصانات الدبلوماسية
في الفقة الإسلامي والقانون الدولي
(1)

بقلم : علي مقبول

نبذة تاريخية عن أهمية التمثيل الدبلوماسي :

قبل البدء في أخذ فكرة تاريخية مختصرة عن التمثيلالدبلوماسي ، لابد لنا من وقفة لتعريف الدبلوماسية :

- ما أصل تسميتها ؟ ، وما حدها ؟ .
- وما موضوعها ؟ .

* أصل تسمية الدبلوماسية :

إن هذه الكلمة مشتقة من الفعل اليوناني (Diploma) ومعناه (طوى) ، وكانت تطلق في العهد الروماني على الوثائق التي
كانت تطوى (طيتين) ، كجوازات السفر ، وتذاكر المرور ، أو الوثائق والصكوك
الصادرة عن الملوك والأمراء ، والمتضمنة منح شخص ما توصية خاصة ، أو
امتيازات استثنائية .

ثم أصبحت هذه الكلمة تطلق على الأوراق والوثائق الرسمية ، أو تلك التي
تتضمن نص الاتفاقات أو المعاهدات المعقودة [1].

وقد دخلت هذه الكلمة المعجم الدولي منذ أواسط القرن السابع عشر حين حلت

محل كلمة المفاوضة (Negotiation) ، وقد تطور مدلول الدبلوماسية مع الزمن
وأصبح يشير إلى معانٍ شتى [2] .

* المفاهيم المختلفة لكلمة الدبلوماسية :

لقد اختلف أساتذة القانون الدولي خاصة منهم الذي اهتم بدراسة العلاقات الدبلوماسية في تحديد معنى الدبلوماسية ، وسنشير إلى أهم الآراء في تعريف هذه الكلمة :

1- الدبلوماسية هي : علم علاقات الدول ومصالح كل منها ، أو : فن التوفيق
بين مصالح الشعوب ، وبشكل أدق : علم وفن المفاوضات [3] .

2- وقيل : فن وعلم معالجة الشؤون الخارجية الدولية [4] .

وخلاصة القول : **إن بعض الكُتّاب يستعمل الدبلوماسية بمعنى توجيه العلاقات**
الدولية ، وآخرون يقصدون بها : الأشخاص الذين يتولون الإشراف على العلاقات
الدولية في كل دولة ، وقد استخدم المسلمون معاني هذه الكلمة في أول الأمر وسيلة
لنشر الدعوة الإسلامية ، فقد بادر الرسول -صلى الله عليه وسلم- إلى إرسال
الرسل ، داعياً ملوك وأمراء زمنه للإسلام [5] .

* تحديد موضوع الدبلوماسية :

يشتمل موضوع الدبلوماسية على دراسة المبادئ العامة والأساليب والأصول التي تتعلق بتمثيل الدول والعلاقات المتبادلة بينها .

والمسؤولون عن هذا التمثيل هم عادة رؤساء الدول ، ورؤساء الحكومات ،
ووزراء الخارجية ، والممثلون الدبلوماسيون ، ومع أن الذين يقومون بالتمثيل فعلاً
هم المبعوثون الدبلوماسيون ؛ إلا إن لكل من رئيس الدولة ، ورئيس الحكومة ،
ووزير الخارجية دوره في التوجيه حسب أهمية مركزه [6] .

* نبذة تاريخية عن مراحل تطور الدبلوماسية :

يدل استقراء التاريخ أن المجتمعات السياسية تبادلت فيما بينها البعثات الدبلوماسية منذ أقدم العصور .

ففي سنة 2353 (ق . م) كان الإمبراطور ياو إمبراطور الصين يستقبل
مبعوثي البلاد المجاورة وفقاً لقواعد دقيقة ومراسيم مختلفة .

وعند الإغريق كانت المدينة هي الوحدة السياسية ، وكان من الضروري أن

تدخل هذه المدن في مفاوضات وعلاقات فيما بينها ، فكانت هذه المدن تحرص على
أن ترسل أبناءها الصالحين للتفاوض مع الآخرين .
أما الإمبراطورية الرومانية ، فقد كان إرسال الرسل والسفراء عندها أمراً
شائعاً وطبيعياً ، كما ساعد نشوء قانون الشعوب ؛ وما احتواه هذا القانون من قواعد
تحكم علاقات الرومان بغيرهم على استقرار القواعد المتعلقة بالتمثيل
الدبلوماسي [7] .
أما العصور الأوروبية الوسطى فإنها امتازت عن سابقتها العصور القديمة
بأنها عصور تدهور وتأخر .
ولا شك أن النظام الإقطاعي الأوروبي قد لعب الدور الأكبر في هذا التدهور
والتأخر في العصور الوسطى ، ومن البدهي أن نظاماً كنظام الإقطاع يستند على
الحروب والانعزالية والجهل لا يكون فيه أي مكان لتبادل الممثلين وعقد المعاهدات
وإجراء المفاوضات [8] .
أما عن الدبلوماسية في العصر الحديث التمثيل الدبلوماسي الدائم : فإن مؤتمر
(فيينا) لعام 1815م ، وما أقره من قواعد دولية ثابتة يعتبر حجر الأساس في بناء
الدبلوماسية الحديثة ، فقد اكتسبت بعده الخدمة الدبلوماسية أبعادها الخاصة بوصفها
مهنة مميزة عن حرفة السياسي ، أو رجل الحكم ، وأصبحت لها قواعدها ،
وإجراءاتها ، ومراسمها الخاصة بها .
ولم يكن من باب الصدفة اختيار (فيينا) بالذات لاجتماع مؤتمر الأمم المتحدة
للعلاقات والحصانات الدبلوماسية الذي بدأ أعماله في شهر مارس 1961م ففي
(فيينا) تم التصديق على أول اتفاق لتحديد الوضع القانوني للممثلين الدبلوماسيين
ومراتبهم [9] .

- صورة التمثيل الدبلوماسي في عصر صدر الإسلام :

يعطي الإسلام أهمية عظمى للتمثيل السياسي وتأمين السفراء ؛ لأنه عن
طريقهم يمكن أن تتعرف سائر الشعوب على تعاليم الإسلام ، ومبادئه ، ويسهل

تبادل المعرفة والتعرف على الحضارات ، والصناعات ، وسائر التحركات الموالية
أو المعادية [10] .
والسنة النبوية مليئة بالتصرفات النبوية التي تدل على اهـتمام النبي -صلى
الله عليه وسلم- بالسفارات ؛ ومن ذلك : الكتب والرسائل التي حملها رسُلهُ -صلى
الله عليه وسلم- إلى الملوك ، والرؤساء ، والأمراء ، داخل الجزيرة العربية
وخارجها .
وأيضاً مما يدل على اهتمام النبي -صلى الله عليه وسلم- بالسفارات :
استقباله لرسل أعدائه ، ومعاملته لهم ؛ وإكرام وفادتهم ؛ وهذا دليل على مشروعية
السفارة ؛ ومما يؤكد ذلك قوله (تعالى) : ﴿ يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ... ﴾
[المائدة : 1]
وقد جاء في تفسير العقود أنها ستة ، منها : عقد الحلف [11] ؛ ويراد به :
المحالفات ، والمعاهدات ؛ ولا شك أن عقدها يتم بوساطة السفارات التي يقوم بها
الرسل ، ولما أفادت هذه الآية جواز المعاهدات ، ومشروعية عقدها ، فإن ما
يتوصل به إلى عقدها يكون مشروعاً وجائزاً [12] .
ومعروفة قصة أبي رافع وسفارته إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- ، وكذلك
قصة سفارة رسولي مسيلمة إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- .
ولقد اتسعت السفارة في عهد الدولة الأموية ، وكان لها دور كبير في تثبيت
أركان الدولة وتعاليم الإسلام ، وفي الفترات المحدودة التي ساد فيها السلام بين
الدولة الإسلامية والدولة الرومانية : كان هناك شيء من المراسلات ، والسفارات ،
ذات الطابع الثقافي ، أو غيره ؛ ومن ذلك : رسالة وردت من قيصر إلى معاوية
(رضي الله عنه) خليفة المسلمين يسأله عن أشياء ، وقد أجابه معاوية عن ذلك [13] .
وقد بعث عبد الملك رسالة مع سفيره الشعبي إلى قيصر الروم ، فأعجب
قيصر الروم أشد الإعجاب بعقلية الشعبي ، فكتب رسالة خاصة إلى عبد الملك جاء

فيها : عجبت من قوم فيهم مثل هذا الرجل كيف ملّكوا غيره [14] **.**

- الدبلوماسية في الدولة العباسية :

قامت الدولة العباسية عام 750م ، وقد تطورت العلاقات الدبلوماسية في ظل الدولة العباسية تطوراً كبيراً ، حيث أقيمت علاقات متطورة مع جميع الدول ، وبخاصة النصرانية في أوروبا ، وكان أساس هذه السفارات تبادل السفراء ، كالسفارات بين الخليفة المنصور وكل من الملك بين ملك الإفرنج ، وبين الخليفة هارون الرشيد و شارلمان ملك الإفرنج عامي 797 - 802م ، وبين الخليفة المأمون والبيزنطيين .

والسفارة بين عضد الدولة وبين الإمبراطور باسيل ، وقد تبودلت السفارات في مناسبات مختلفة في عهد الخليفة المقتدر مع بيزنطة سنة 918 م ، حيث أرسلت بيزنطة سفارة تتكون من عشرين شخصاً ، وقد احتفوا بهم وأطلعوهم على مباهج العاصمة بغداد ، وقصورها ، والأماكن المهمة فيها .

وقد أرسل البلغار وفداً إلى الخليفة المقتدر سنة 309هـ - 921م ، للتفاوض حول إرسال خبراء في بناء الحصون ، وفقهاء الدين الإسلامي ، وقد أرسل الخليفة إليهم ذلك [15] **.**

الحصانات والامتيازات الدبلوماسية في القانون الدولي :

تمهيد : المقصود بالحصانة الدبلوماسية ، هو ما يتمتع به المبعوث الأجنبي من حقوق وامتيازات في الدولة المرسل إليها ، ويعتبر هذا الموضوع من أهم مقومات الدبلوماسية [16] **.**

ولذلك : فالحصانات والامتيازات ليست في حقيقتها سوى استثناء يرد على اختصاص الدولة ، لأنه من المسلّم به طبقاً لنظرية السيادة للدولة الحق في أن تمارس اختصاصها على كافة الأفراد الذين يقيمون على إقليمها ، والهدف من الحصانات والامتيازات الدبلوماسية هو إعفاء بعض الأشخاص من سلطات الدولة واختصاصها القضائي [17] **.**

* التكييف القانوني للحصانات والامتيازات الدبلوماسية :

يتمتع الممثلون الدبلوماسيون بحصانات وإعفاءات متنوعة في الدول التي يباشرون فيها وظائفهم ، وقد تضاربت النظريات حول المبنى القانوني لهذه الحصانات إلى ما يلي :

1- نظرية امتداد الإقليم : وهي تقرر أن رجل السلك الدبلوماسي حينما يوجد في إقليم دولة أخرى يعتبر كأنه لا يزال في إقليم دولته ، ومن ثم : لا يكون خاضعاً لما يسري في إقليم الدولة التي يعمل فيها من قوانين .

ويعيب هذه النظرية : أنها قائمة على افتراض لا أساس له من الحقيقة ، ويؤدي إلى نتائج غير مقبولة ، فقد استند إليها بعض السفراء في القديم للمطالبة بإعفاءات تتناول الحي أو المنطقة التي توجد فيها السفارات أو المفوضيات .

2- نظرية النيابة : ومقتضاها أن الممثل الدبلوماسي حين يباشر وظيفته إنما ينوب عن رئيس دولته صاحب السيادة ، ومن ثم : يتمتع بنفس الإعفاءات المقررة لرئيس الدولة .

ويؤخذ على هذه النظرية : أنها تضيق عن تفسير ما يتمتع به الممثل الدبلوماسي من حصانات خارج نطاق عمله الرسمي من جهة ، ومن جهة أخرى : فإن المسلّم به أن الممثل الدبلوماسي لا يتمتع بالمركز نفسه من حيث الإعفاءات كرئيس الدولة الذي تقضي المبادئ العامة بأنه غير معصوم من الخطأ وتمتنع مساءلته على أي وجه من الوجوه .

3- نظرية الوظيفة : وهو الرأي الذي أيده كثير من المتخصصين في القانون الدولي ، وهو الذي يربط بين الحصانات وبين وظيفة الممثل الدبلوماسي ، ويقرر أن أساس الحصانة هو تمكين الممثل الدبلوماسي من مباشرة وظيفته التمثيلية وأداء عمله دون عائق ، وأن الحصانات مقررة للوظيفة ذاتها وليست لفائدة الممثل الشخصية .

ولقد أخذت اتفاقية (فيينا) سنة 1961م ، بنظرية الوظيفة ؛ حيث قررت في الديباجة أن الغرض من الحصانات ليس تحقيق فائدة الأفراد ، بل ضمان الأداء

الفعال لوظائف البعثات الدبلوماسية باعتبارها ممثلة للدول .
على أن الإشارة إلى الصفة التمثيلية تفيد ضرورة مراعاة الصفة في تقرير
الحصانات الدبلوماسية .
ولما كانت الحصانات مرتبطة بالوظيفة وملازمة لها ولم تقرر لفائدة الممثل
الشخصية : فإنه يتفرع من ذلك أن الممثل الدبلوماسي لا يعفى من أحكام القانون
كلية بل هو يخضع لها بوجه عام ، وإنما يمتنع فقط اتخاذ أية إجراءات إدارية أو
قضائية في مواجهته أمام السلطات الإقليمية ، ويترك الأمر في هذا الشأن لسلطات
الدولة التي يتبعها ، وذلك حتى لا يكون في اتخاذ هذه الإجراءات بواسطة الدولة
التي يباشر فيها وظيفته ما يعوق الممثل الدبلوماسي عن أداء عمله بحرية واطمئنان ، ومن هذا أيضاً : أنه إذا ارتكب
جريمة أو أمعن في انتهاك القانون الوطني ،
فللدولة أن تطالب من دولة المبعوث الدبلوماسي استدعاءه ، بل يجوز لها أن تطرده
من الإقليم [18] .

* ماهية الحصانات والامتيازات الدبلوماسية :

تمهيد : جرى العرف الدولي على تمتع الممثلين الدبلوماسيين بامتيازات عديدة
بعضها خاص بأشخاصهم ، وبعضها خاص بأملاكهم وبدور الوكالات السياسية .
وقد تقررت لهم هذه الامتيازات تحقيقاً لاستقلالهم ، وحتى لا تمنعهم من القيام
بمهمتهم على أتم وجه .
مع أنه يجب أن يلاحظ فيما يتعلق بهذه الامتيازات ، التي سنشرحها تفصيلاً
إن شاء الله أن التمتع بها قاصر على الممثلين الدبلوماسيين الدائمين ، تمييزاً لهم عن
الذين يُنتدبون لأداء مهمة خاصة أو لتمثيل دولتهم في مفاوضة أو ما أشبه ذلك ،
فهؤلاء الأخيرون لا يتمتعون قانوناً بأي إعفاء .
وسنبين هذه الامتيازات إجمالاً ، ثم نتحدث عنها بعد ذلك بشيء من التفصيل ، ثم نتحدث عن موقف الشريعة
الإسلامية من هذه الحصانات والامتيازات .
وهذه الحصانات والامتيازات بالنسبة للممثلين الدبلوماسيين التي قررها
القانون الدولي يمكن ذكرها إجمالاً فيما يلي :

1- واجب عدم التعرض لشخص الممثل الدبلوماسي ، أو الحصانة الشخصية .
2- عدم خضوع الممثل الدبلوماسي لقضاء الدولة المبعوث لديها ، أو الحصانة القضائية .
3- عدم خضوع دار الوكالة ومحتوياتها للقضاء الإقليمي .
4- الحصانة المالية ، أو الإعفاء من الضرائب .

أولاً : الحصانة الشخصية للممثل الدبلوماسي :

تؤكد المادة (29) من اتفاقية (فيينا) حصانة المبعوث الدبلوماسي ، وتفصله بقولها : تكون للممثل الدبلوماسي حصانة ، ولا يجوز القبض عليه أو حجزه بأي شكل من الأشكال ، وتعامله الدولة المستقبلة بالاحترام الواجب ، وتتخذ جميع الإجراءات المعقولة لتمنع أي اعتداء على شخصه أو حريته أو كرامته .

ويفهم من هذه المادة : أن على الدولة المعتمد لديها المبعوث واجباً ذا شقين :

الشق الأول : أن تحرص من ناحيتها على عدم المساس بمكانة المبعوث بأي صورة من الصور ، فيتعين عليها معاملته بالاحترام الواجب لمركزه ، وتجنب أي فعل أو تصرف يكون فيه إخلال بهيبته أو امتهان لكرامته أو ازدراء لشخصه أو تقييد لحريته ، وبالأخص القبض عليه أو حجزه لأي سبب من الأسباب .

الشق الثاني : أن تكفل له الحماية اللازمة ضد أي اعتداء يمكن أن يوجه إليه من الغير ، أو أي فعل يكون فيه مساس بذاته أو بصفته .

وفي حالة وقوع اعتداء على المبعوث : يجب على الدولة المعتمد لديها أن تجري ما يلزم لمؤاخذة أو معاقبة المسؤولين ، وتعويض الضرر الذي يكون قد حدث .

ومراعاة مكانة ذات المبعوث الدبلوماسي واجبة ولو لم يتمسك بها فمكانته تحميه على حد قول فوشي بالرغم منه ، إذ هي مقررة لصالح دولته ضماناً لاستقلاله في أداء مهمته المكلف بها من قبلها أكثر منها لصالحه الخاص .

وعلى رئيس البعثة الدبلوماسية إذا ما وقع عليه أو على أحد أعضائها اعتداء

أن يبلغ ذلك إلى الدولة المعتمد لديها ، وعلى الدولة المعتمد لديها إجراء التحقيق
اللازم لذلك ، ومجازاة المعتدي ، وتقديم الترضية المناسبة ، فإذا لم تهتم الدولة
المعتمد لديها بشكواه فإنه يبلغ ذلك لدولته لإجراء اللازم ، وقد يطلب من الدولة
المعتمد لديها المغادرة على سبيل الاحتجاج .

ولكن ما الحكم إذا قام المبعوث الدبلوماسي برد الاعتداء الواقع عليه مباشرة ؟

مما لا شك فيه أن الممثل الدبلوماسي يتمتع بحق الدفاع الشرعي عن النفس ، وعلى المبعوث هنا ألا ينسى طبيعة مهنته ، وعليه أن لا يلجأ إلى الانتقام المباشر إلا إذا كان في حالة دفاع شرعي عن النفس فعلاً [19] .

وأيضاً على الدولة الموفد إليها أن تمنع إهانة رجال السلك الدبلوماسي أو سبهم أو التشهير بهم ، ويذكر الشراح عادة أن حرية الصحافة تتقيد بهذا الشأن احتراماً للقانون الدولي العام ، ومع ذلك يجوز ممارسة حق النقد العادي في الصحف أو الخطب [20] .

ويتبع حرمة المبعوث الدبلوماسي ، حرمة مسكنه وأمواله ، ويكون مسكنه بمنأى عن التعرض من جانب سلطات الدولة أو من جانب الغير ، وعلى الدولة المعتمد لديها أن توفر الحماية الكافية لمسكن المبعوث الدبلوماسي ، وتمشياً مع هذا الاعتبار تنص المادة (30) من اتفاقية (فيينا) على أنه : يتمتع المسكن الخاص للممثل الدبلوماسي بنفس الحصانة والحماية المقررة لمباني البعثة .

وتتمتع أيضاً وثائقه ومراسلاته ، وكذلك ممتلكاته ، باستثناء ما ورد في الفقرة (3) من المادة (31) بنفس الحصانة ، وسيأتي ذلك مفصلاً إن شاء الله عند الحديث عن الحصانة عن دار الوكالة السياسية [21] .

ثانياً : الحصانة القضائية :

تحدثت المادة (31) من اتفاقية (فيينا) عن الحصانة القضائية فقالت :

1- يتمتع الممثل الدبلوماسي بالحصانة إزاء القضاء الجنائي للدولة المستقبِلة ، كما يتمتع بالحصانة إزاء القضاء المدني والإداري لنفس الدولة ، فيما عدا الأحوال

الآتية :
أ- دعوى عينية متعلقة بعقار خاص واقع في الدولة المستقبلة ، إلا إذا كان
الممثل الدبلوماسي يتمتع بحق ملكيته لحساب حكومته من أجل أغراض البعثة .
ب- دعوى متعلقة بتركة يكون الممثل الدبلوماسي قد عين منفذاً أو مديراً لها ،
أو يكون وارثاً أو موصى له بصفته الشخصية وليس باسم الدولة المرسلة .
ج- دعوى متعلقة بمهنة حرة أو نشاط تجاري أيّاً كان نوعه ، حين مزاولة
الممثل الدبلوماسي في الدولة المستقبلة له خارج نطاق مهامه الرسمية .
2- لا يلزم الممثل الدبلوماسي بأداء الشهادة .
3- لا يجوز اتخاذ أي إجراء تنفيذي حيال الممثل الدبلوماسي ، إلا في
الحالات الواردة تحت البنود أ ، ب ، ج من الفقرة (1) من هذه المادة ، وبشرط ألا
تمس هذه الإجراءات مكانة شخصه أو سكنه .
4- حصانة الممثل الدبلوماسي بالنسبة لقضاء الدولة المستقبلة لا تعفيه من
الخضوع لقضاء الدولة المرسلة [22] .
ومن هذه المادة نرى أنه لم يرد في اتفاقية (فيينا) تعريف محدد للحصانة
القضائية ، ولهذا : فقد ذهب القانون إلى أن المقصود بالحصانة القضائية هو :
إعفاء أو استثناء أو عدم خضوع المبعوث الدبلوماسي للاختصاص القضائي المحلي .
ولكن قد يستدرك سائل فيقول : إن الأخذ بالتعريف السابق ينطوي على نقص
في سيادة الدولة المبعوث لديها الممثل الدبلوماسي !
وأجيب عن هذا التساؤل : أن المقصود بالحصانة القضائية هو الحصانة من
ممارسة الاختصاص ، أي : إن عدم خضوع المبعوث الدبلوماسي لاختصاص محاكم
الدولة المستقبلة ، لا تجعله فوق قوانين تلك الدولة ، فالحصانة من الاختصاص
القضائي لا تعني الحصانة من المسؤولية ، إذ تبقى مسؤوليته قائمة ، وإن ما يترتب
على الدفع بالحصانة هو اختلاف المحاكم التي تتولى الفصل في الدعوى ، إذ ينقل

هذا الاختصاص من محاكم الدولة المستقبلة إلى محاكم الدولة المرسلة .

وعلى ذلك يمكن القول إن المقصود بالحصانة القضائية : نقل الاختصاص القضائي من محاكم الدولة المستقبلة إلى محاكم الدولة المرسلة في الدعوى التي يكون أحد أطرافها مبعوثاً دبلوماسياً .

ويتحدد نقل الاختصاص في الدعاوى المدنية المقامة على المبعوث الدبلوماسي وفقاً لأحكام القانون الدولي الخاص ، باعتبار أن المبعوث الدبلوماسي شخص أجنبي يخضع لأحكام تحديد الاختصاص الواردة فيه .

ويتحدد نقل الاختصاص في الدعاوى الجزائية وفقاً لقاعدة : شخصية القانون الجزائي ، التي تقضي بخضوع أفراد الدولة لأحكام قوانينها بغض النظر عن مكان وقوع الجريمة [23] .

ومما سبق يتبين لنا : **أن رجال السلك الدبلوماسي لا يخضعون لولاية الحاكم في الدولة الموفد إليها بالنسبة لما يرتكبونه من جرائم على اختلاف أنواعها سواء أكانت : جنايات ، أو جنح ، أو مخالفات .**

ولا يجوز اتخاذ أي إجراء قضائي من قبض وتحقيق وتوجيه اتهام ومحاكمة ضد أحد رجال السلك الدبلوماسي .

ولكن يحق للدولة الموفد إليها في القضايا الجنائية أن تبلغ دولة المبعوث المخطئ طالبة سحبه ومحاكمته ، وكذلك بإمكان المجني عليهم في الدولة الموفد إليها التقدم بالشكاوى لوزارة الخارجية للدولة المستقبلة حتى تتخذ الإجراءات الدبلوماسية اللازمة ، وقد تطالب الأخيرة برفع الحصانة عنهم حتى تتمكن من تحقيق العدالة .

أما القضاء المدني : فيذهب الرأي الراجح في القانون إلى تقييد الإعفاء من القضاء المدني ، وذلك بالاستثناءات الواردة في المادة (31) في الفقرة (1) وتشمل : أ ، ب ، ج [24] .

---

(1) د سموحي فوق العادة ، الدبلوماسية الحديثة ، ص1 .
(2) د محمد عزيز شكري ، المدخل إلى القانون الدولي العام وقت السلم ، ص319 ، 320 .
(3) د سموحي فوق العادة ، الدبلوماسية الحديثة ، ص2 .
(4) د عائشة راتب ، التنظيم الدبلوماسي والقنصلي ، ص65 .
(5) راجع : د محمد عزيز شكري ، المدخل إلى القانون الدولي وقت السلم ، ص322 .

(6) د فاضل زكي ، الدبلوماسية بين النظريةوالتطبيق ، ص14 .
(7) د محمد حافظ غانم ، العلاقات الدبلوماسية والقنصلية ، ص35 ، 36 .
(8) د فاضل زكي ، مرجع سابق ، ص22 .
(9) راجع : د عدنان البكري ، العلاقات الدبلوماسية والقنصلية ، ص34 .
(10) د محمد سلام مدكور ، معالم الدولة الإسلامية ، ص181 .
(11) انظر حول معنى الآية : كتاب أحكام القرآن للكيا الهراسي ، ص7 ، وأحكام القرآن ، للقرطبي ، ج6 ، ص32 ، وفتح القدير ، للشوكاني ، ج2 ، ص4 .
(12) د محمد حسن سفر ، السفارات في النظام الإسلامي ، مجلة البحوث الفقهية المعاصرة ، العدد التاسع ، السنةالثالثة ، شوال وذو القعدة وذو الحجة ، عام 1411 هـ ، ص18 .
(13) انظر : البداية والنهاية ، لابن كثير ، ج8 ، ص102 .
(14) انظر : د محمد الصادق عفيفي ، التطور الدبلوماسي في الإسلام ، ص35 ، 36 .
(15) د سهيل الفتلاوي ، تطور الدبلوماسية عند العرب ، ص106 .
(16) السابق ، ص119 .
(17) سلطات الأمن والحصانات والامتيازات الدبلوماسية في الواقع العملي والنظري مقارناً بالشريعة الإسلامية ، د فاوي الملاح ، ص63 .
(18) انظر : مبادئ القانون الدولي العام ، د محمد حافظ غانم ، ص 581 ، 582 .
(19) انظر : التنظيم الدبلوماسي والقنصلي ، د عائشة راتب ، ص144 .
(20) العلاقات الدبلوماسية والقنصلية ، د محمد حافظ غانم ، ص137 .
(21) انظر : القانون الدبلوماسي والقنصلي ، د علي صادق أبو هيف ، ص176 .
(22) انظر : مواد اتفاقية (فيينا) ، عن وثائق مؤتمر الأمم المتحدة بشأن العلاقات والحصانات والامتيازات الدبلوماسية المنعقد في (فيينا) عام 1961 ، عن المجلة المصرية للقانون الدولي ، المجلد (17) 1961 ، ص52 .
(23) راجع الحصانة القضائية للمبعوث الدبلوماسي، دراسة مقارنة ، د سهيل الفتلاوي ، ص 8991 .
(24) انظر : التنظيم الدبلوماسي والقنصلي ، د عائشة راتب ، ص155 ، والعلاقات الدبلوماسية والقنصلية ، د محمد حافظ غانم ، ص139 .

المسلمون والعالم

نعم ..

قامت الجامعة العربية بدورها !

بقلم : عبد العزيز كامل

بعد أن انفض سامر الاحتفال بذكرى مرور خمسين عاماً على إنشاء جامعة الدول العربية ، وبعد أن أفرغ المتحدثون ما في جعبتهم من مدحٍ أو قدح ، ومن ثناء أو هجاء ، ها نحن ندلي بما نراه في هذا الشأن ، لا احتفالاً بهذه الذكرى ، ولا احتفاءً بيوبيلها الذهبي ، ولكن إحقاقاً لحق ينبغي قوله ، وتسجيلاً لشهادة لابد منها .

ولابد لنا من استحضار مشاهد سريعة من التاريخ الحديث ، لاستظهار شواهد من واقع مرحلة البدء التي تمخضت عن ميلاد فكرة الجامعة العربية ، ذلك أنه في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي وبداية القرن التاسع عشر ، بدا أن دولة الخلافة

العثمانية قد أصبحت مرشحة للسقوط ، بسبب ما اعتراها من خلل في البنيان ودَخَل
في المنهج ، هذا في الوقت الذي كانت فيه دول العالم النصراني تتطلع إلى سقوطها
وإلى موت (الرجل المريض) لاقتسام تركته ، وكان اليهود أيضاً يتشوقون للحدث ،
ويرمقون الأحوال بشغف ، عسى أن ينالهم نصيب من قسمة الميراث .

وفي أواخر حياته ، سمع تيودور هرتزل (مؤسس فكرة الدولة اليهودية)
بحركة تدعو إلى تجديد شباب الخلافة الإسلامية ، وأطلقت هذه الحركة على نفسها
(حركة الجامعة الإسلامية) ، وكان من دعاتها الشيخ محمد رشيد رضا ، فاغتم لهذه
الحركة ، وسرعان ما حركه حسه اليهودي الماكر من الاغتمام بالخبر إلى السعي
إلى اغتنامه ، وخطر له أن يجري اتصالاته لإقحام النصارى في المناداة بتحرير
العرب من (استعمار) الترك ، وليناداوا ب (القومية العربية) في مقابلة (القومية
التركية الطورانية) التي رفع يهود تركيا عقيرتهم بها ، وكان أن اتصل هرتزل
بنجيب عازوري لمحاولة دمج حركته المسماة (اليقظة العربية) مع حركة (الجامعة
الإسلامية) ، ثم حدث أن قامت الحرب العالمية الأولى سنة 1914م ، ليكون من أهم
نتائجها : هزيمة تركيا ، والقضاء على دولة الخلافة العثمانية ، وما هي إلا أعوام
ثلاثة حتى صدر وعد بلفور (وزير خارجية بريطانيا) بمنح اليهود وطناً قوميّاً في
فلسطين ، ثم تقوم الحرب العالمية الثانية ، التي كان من أهم نتائجها ، تقسيم بلاد
العرب بين انجلترا وفرنسا ، بمقتضى اتفاقية (سايكس بيكو) وزيري خارجية
البلدين ، وهكذا انفرط العقد الذي كان يجمع البلدان العربية والإسلامية برباط
الإسلام ، وأصرّ الأعداء على إيجاد رابطة بديلة لرابطة الانتماء للإسلام ، وراج
الكلام وزاد الضجيج حول (رابطة العروبة) بدلاً من (رابطة الإسلام) ، و (الجامعة
العربية) بدلاً من (الجامعة الإسلامية) .

وفي 29 مايو عام 1941م ، أدلى السياسي البريطاني المخضرم إيدن
بتصريح في مجلس العموم البريطاني ، عبّر فيه عن استعداد بريطانيا لاحتضان
الدعوة لإنشاء الجامعة العربية ، وقال : إن العرب يتطلعون لنيل تأييدنا في مساعيهم
لتحقيق فكرة (جامعة عربية) وقال : إنه سيكون لبريطانيا شرف السبق إلى تحقيق
هذا المطلب ! .
وفي مصر ، ندب حزب الوفد المصري (أعرق الأحزاب العلمانية) نفسه
لتنفيذ الفكرة ، فدعا زعيم الوفد مصطفى النحاس إلى إنشاء مؤتمر يبحث فكرة
التنسيق بين الدول العربية ، لترسيخ المبدأ القومي ثم الوطني على أساس الانتماء
للعروبة ، واقترح تشكيل لجنة تحضيرية لمؤتمر لهذا الشأن .
وبالفعل : جاء اليوم الذي أعلن فيه عن تأسيس (الجامعة العربية) بعد أن
أجهض اليهود والنصارى والعلمانيون مشروع (الجامعة الإسلامية) وأعلن في 22
مارس عام 1945م ، عن تأسيس الجامعة لتكون (القاهرة) مقرّاً لها ، في وقت كانت
مصر فيه لا تزال تحت الاحتلال الإنجليزي الذي أعطى الضوء الأخضر لقيام
الجامعة التي تستطيع التعامل من خلالها مع العرب بأنها ليست ضد أماني العرب
في (الوحدة) ، وأدركت أنها من خلال سيطرتها على مصر ، وسيطرة مصر على
الجامعة ، ستستطيع تمرير ما تتطلبه المرحلة من مناورات ومؤامرات .
لقد ولدت الجامعة إذن لغرض واضح من البداية : سلخ العرب المسلمين عن
المسلمين غير العرب ، لا لإعزاز العرب بغير الدين ، ولكن طمعاً في إذلال الدين
بذُل العرب . لهذا : فقد كان مرسوماً منذ البداية أن تكون الجامعة تجسيداً للذل
العربي ، فهل نجح البريطان - ومن بعدهم الأمريكان - في إنجاح الجامعة في هذه
المهمة ؟ !
لنتأمل معاً ... ماذا أعلنت الجامعة من أهداف ؟ وماذا تحقق منها في عالم

الواقع ؟ ما الذي تحقق لمصلحة العرب ؟ وما الذي تحقق لمصلحة أعداء العرب ؟ .

لقد نص ميثاق الجامعة على عدد من الأهداف الكبيرة ، فلنراجعها ، ولنراجع نتائجها بعد خمسين عاماً من إنشاء الجامعة وتوقيع ميثاقها :

أولاً : استكمال تحرير البلاد والشعوب العربية من الاحتلال الأجنبي :

لاحظ التعبير : الشعوب (العربية) والعربية فقط ! وماذا إذن عن الشعوب الإسلامية ؟ ! لا ضير من احتلالها ما سلمت بلاد العرب ، ومع هذا ، هل سلمت بلاد العرب وتحررت شعوب العرب من الاحتلال الأجنبي ؟ نسأل بعد خمسين عاماً من إعلان الميثاق ونترك الجواب للشعوب التي لا يزال يسيطر عليها الأجنبي ويخضعها لمعسكره ، بعد أن كانت خاضعة فقط لعسكره ، نعم ، لقد انتهى عصر سيطرة العسكر ، وبدأ منذ زمان عصر سيطرة المعسكر ، ومع هذا أيضاً : فلا يزال من بلاد (العرب) في ظل جامعة العرب ، مَنْ لا يزال باقياً تحت سيطرة أذل العسكر (اليهود) ، وأسألوا فلسطين التي وضعت الجامعة بصمتها على صك بيعها في المعاهدات السلمية ، بعد خمسة حروب ، هُزمت جيوش العرب في أولاها سنة 1948 وغابت في الثانية عام 1956 ، وسحقت ونكست في الثالثة عام 1967 ، وسحبت منها الثمرة في الرابعة 1973م ، بينما تفرج عليها العالم وهي ساكتة صامتة في الخامسة عام 1982م ، حيث اجتاح اليهود جنوب لبنان في حرب من طرف واحد ! .

ثانياً : كان من أهداف الجامعة العربية المعلنة ، تحقيق فكرة الدفاع العربي المشترك , وهذا يعني في أبسط معانيه : وجود جيش عربي قوي موحد ، أو على الأقل : جيوش عربية قوية بينها تنسيق لرد أي أطماع من الغير ، فهل هذا حاصل الآن بعد خمسين عاماً ؟ ! لقد تم في عام 1950م توقيع معاهدة : الدفاع العربي المشترك ، وتم تشكيل مجلس للدفاع المشترك ، ولكن هذه المعاهدة تم إيقاف العمل بها منذ ست عشرة سنة ، كما تم إلغاء مشروع الإنتاج الحربي بدعم من الدول العربية مجتمعة ،

ولكن بعض لجان مجلس الدفاع المشترك لم تُلغَ ، وإنما أبقيت كرمز ، وسمح لها باستئناف نشاطات من قبيل : رعاية الدورات الرياضية ، وإصدار المعاجم العسكرية التاريخية والجغرافية ! ونحو ذلك .

ثالثاً : كان من الأهداف المعلنة : تحقيق الوحدة الاقتصادية العربية ، وإقامة سوق عربية مشتركة .

هل تحققت للعرب وحدة اقتصادية تحت مظلة الجامعة العربية ؟

لقد أعلن في عام 1962م ، عن مشروع (الوحدة العربية الاقتصادية) ونص المشروع على أن لرعايا الدول الموقعة حرية انتقال الأشخاص ، ورؤوس الأموال ، وتبادل البضائع ، والإقامة ، والعمل ، والترانزيت ... إلخ ، وبعد عشر سنوات كاملة من إعلان الإتفاقية ، أُلغيت بعد تقويمها ومراجعتها ثم الحكم بفشلها . وأُرجع سبب الفشل في حينه إلى أن : الأهداف كانت طموحة جداً .. ! !

أما السوق العربية المشتركة ، فنسمع عنها فقط في إذاعة بلاد (واق الواق) والصحف التي تتحدث عن الغول والعنقاء والخل الوفي ! .

رابعاً : إحكام المقاطعة العربية ضد إسرائيل :

وهو هدف ، استمرت الجامعة في المحافظة على إعلانه ، وظلت المقاطعة قائمة في العلن ، حتى قوطعت من بعض أعضاء الجامعة العربية ، وبدون إذنها ، وصدرت القرارات برفع المقاطعة كلياً أو جزئياً ، وبرز مصطلح التطبيع بدلاً منها ، ولا نكاد نسمع الآن بعد خمسين عاماً أن هناك من يتعاطف مع قطع العلاقات السياسية فضلاً عن الاقتصادية ، بل صار الرائج والسائد (المسارعة) بدل (المقاطعة) ! فالكل يتلهف على فتح الأسواق أمام بضائع اليهود .

خامساً : ومما تم إعلانه من الأهداف قديماً :

إنشاء محكمة عدل عربية للنظر في فض المشكلات التي (ربما) تنشأ بين الدول الشقيقة ، فتكون المحكمة موئلاً لفض المنازعات بدلاً من اللجوء إلى المحاكم الدولية ، وقد نصت المادة (19) على ضرورة إنشاء تلك المحكمة .

ولكننا لم نسمع حتى الآن عن مشكلة واحدة عرضت على تلك المحكمة ، لا
لأن العرب لم تنشأ بينهم خلال خمسين عاماً (لا قدر الله) أي مشكلة (! !) ، ولكن
لأن هذه المحكمة لم تعقد أي جلسة ، ولسبب بسيط ، وهو أن هذه المحكمة لم تُشكل
أصلاً .

سادساً : أعلنت الجامعة في ميثاقها عن أهمية ضمان حقوق الإنسان العربي :

لم يختلف العرب في أمر مثل اختلافهم في هذه القضية ، حيث ظهر أن لكل
طرف عربي فهماً خاصاً لحقوق الإنسان ، وقد جاءت الإشارة إلى حقوق الإنسان
في ميثاق الجامعة مجملة ومبهمة ، ومع هذا : لم تجتمع الآراء في هذه القضية ،
حتى إنه قد تشكلت في عام 1961م ، لجنة للنظر في تعديل ميثاق الجامعة فيما
يتعلق بحقوق الإنسان العربي ، إذ اختلفت بعض الدول في مجرد تبني الجامعة
(حقوق الإنسان) في بلد عربي كهدف من أهدافها ! واعتبرت دول أخرى هذا الأمر
من حقوق السيادة ، وأنه من الأمور الخاصة بكل دولة ، حيث لها الحق في معاملة
رعاياها بما تراه ملائماً ، وبعد أخذ ورد ، انتهت المداولات إلى إعلان وثيقة
(وعظية) تدعو إلى احترام حقوق الإنسان (العربي) وصدر ما يسمى ب (إعلان
حقوق الإنسان العربي) كصدىً خافت ونقع باهت لـ (إعلان حقوق الإنسان) في
الأمم المتحدة ، ومع هذا : تناقضت وجهات النظر حيال الإعلان العربي ، ووجهت
إليه سهام النقد ، حتى انتهت إلى الإلغاء والنقض ! .

وإذا كان هذا هو شأن الجامعة مع أهدافها الكبرى ، **فماذا يا ترى سيكون حالها
مع الأهداف الأدنى منها ؟** إن نظرة واحدة على المشروعات والاتفاقيات
والطروحات التي أعلنت عنها الجامعة دون أن تحقق منها شيئاً ، لتصيب الإنسان
بالدهشة ، وتدفعه للتساؤل : لماذا هذا الإصرار على الفشل ؟ ! ولماذا يقترن الفشل
دائماً ب (العروبة) في مشروعات (بيت العروبة) كما يحلو لهم أن يسموه ؟ !

اتفاقيات فاشلة ، مشروعات فاشلة ، أطروحات فاشلة ...
ففي عام 1958م أُعلن عن مشروع لإنشاء مصرف للتنمية العربية .
وفي عام 1960م أُعلن عن تشكيل المجلس الاقتصادي العربي .
وفي عام 1962م أُعلن عن توقيع اتفاقية للوحدة العربية .
وهذه الاتفاقيات كانت حبراً على ورق ، حيث لم يُر لها أي أثر في الواقع ،
وهناك اتفاقيات أخرى أو مشاريع لم تر النور أصلاً ، ولم تخرج من أدراجها ولو
لالتقاط الصور التذكارية بجانبها ، من ذلك : إنشاء مجلس عربي للبحوث الذرية في
الأغراض السلمية ، والاتفاقية العربية للتبادل التجاري وتنظيم التجارة لعام 1953م ، واتفاقية تسديد مدخرات المعاملات
التجارية وانتقال رؤوس الأموال لعام 1956م ، واتفاقية توحيد التعرفة الجمركية 1956م .
هذه أحوال الجامعة مع مشروعاتها وأهدافها النابعة من داخلها ، فماذا عساها
أن تفعل مع مشاكلها المنبعثة من خارجها ؟ إننا سنشير فقط مجرد إشارات لأبرز
التحديات التي واجهتها الجامعة ، لا عبر سنيها الخمسين فهذا أمر يطول ولكن عبر
عقودها الخمسة .
ففي الأربعينات : وبعد ميلاد الجامعة بثلاثة أعوام ، كانت نكبة فلسطين ،
واحتلال عصابات اليهود لها ، وفشل العرب من خلال الجامعة في الترتيب لمعركة
جادة مع اليهود ، في الوقت الذي كانت كل الشواهد تدل على استعداد اليهود لتلك
الحرب ، فلما قامت الحرب سنة 1948م ، اندحرت جيوش العرب المقاتلة تحت
لواء (العروبة) أمام جيش اليهود المقاتل تحت لواء (التوراة) ! .
وفي الخمسينات : حدث خلاف بين مصر والأردن ، عجزت الجامعة عن حله
داخل أروقتها ، فسجلت بذلك أول نقطة ضعف في السيطرة الداخلية بين أعضائها ،
مما حدا بالأردن إلى تقديم شكوى إلى مجلس الأمن الدولي في 13/7/1958م ، ولم

يكن للعرب من خلال الجامعة ذلك الموقف الذي يتناسب مع ضخامة الحدث .
وفي الستينات : كانت الهزيمة المهينة مرة أخرى لجيوش سبع دول عربية
أمام جيش اليهود 1967م ، وأصبحت العروبة أمثولة وأضحوكة أمام العالم الذي
طالما سمع التهديد بإلقاء (إسرائيل) في البحر ، وأصيبت الجامعة العربية بالصفعة
الكبرى من جرائها ، لأنه تأكد أنه بعد عشرة أعوام من وعودها بحشد العرب
لمعركة المصير والتحرير ، كان العرب في ظلها منصرفين فقط لمعاركهم الداخلية ،
وخلافاتهم المزمنة .
وفي السبعينات : تُوّجت حرب (التحريك) سنة 1973م ، بسلسلة من عمليات
الإجهاض للنصر الجزئي الذي تحقق ، حتى انتهت إلى توقيع اتفاقية سلام (منفرد)
قامت به الدولة المحتضنة للجامعة ، دون مشورة بقية الدول العربية ، مما دفع تلك
الدول وقتها إلى سحب الجامعة نفسها من مقرها بالقاهرة إلى مقر مؤقت في تونس ،
وبعد أول مؤتمر عقد في (بغداد) تقرر عزل مصر ومقاطعتها ، وسخر الرئيس
المصري - آنذاك - من مقاطعة العرب وسحب الجامعة ، وقرر إنشاء جامعة أخرى
في مصر ! ، وسماها جامعة (الشعوب) العربية ، بدلاً من جامعة (الدول) العربية ! .
وفي الثمانينات : أُعيدت مصر إلى الجامعة العربية ، وعادت إلى مقرها ،
دون أن تتغير الأسباب التي من أجلها قوطعت مصر ونُقلت الجامعة ! .
وكان هذا من علامات الاستفهام والتعجب التي أُثيرت حول كيفية إدارة
المواقف داخل تلك الجامعة ، حيث تبين للجميع أنه لا ثوابت تحكمها ولا مبادئ
تسيّرها ، ولا تأثير فيها ولا بها ولا منها ، وقد تُرجم هذا الشعور إلى انصراف
العرب إلى إنشاء مجموعات إقليمية ، ظهرت على شكل مجالس منفصلة مثل :
مجلس التعاون الخليجي ، ومجلس التعاون العربي ، ومجلس الاتحاد المغاربي ،
وبقيت الجامعة مجلساً لمن لا مجلس له ! .

**وفي التسعينات : توالت الكوارث على الجامعة ، لتهدم ما تبقى في بنيانها من
قواعد ، وليكون هذا العقد الذي لم ينته بعد هو العقد الفاصل في عمر الجامعة ،
وكان أهم ما حدث فيه من الأحداث :
1- غزو الكويت من قبل الجيش العراقي ، حيث سجل ذلك أول سابقة
اجتياح من دولة عربية لأراضي دولة عربية أخرى ، وكلاهما عضو في الجامعة
العربية ، وتعجز الجامعة في مؤتمرها للقمة أن تفعل شيئاً ، فتتفاقم الأزمة عربياً ،
وتتفاعل دولياً ، مما مهد لتدويل الأزمة ، كما هو معروف .
2- كان فشل الجامعة في تقديم أي حلول في أزمة الخليج مما أطاح بما تبقى
من مصداقيتها ، وكان هذا من أسباب تسريع عملية السلام مع اليهود ، حيث بدا
لبعض العرب ، أنه لا جدوى من التعايش مع وهم (الوحدة العربية) ، وبالتالي : لا
جدوى من الاستمرار في إدارة (الصراع العربي الإسرائيلي) ، فكان مؤتمر مدريد ،
وكانت الصفعة الجديدة للجامعة ، لأنها استبعدت من التمثيل في المؤتمر ، حيث
تقرر التعامل مع الدول العربية كلاً على حدة ، وهذا ما حدث في خطوات عمليات
السلام بعد ذلك ، حيث جعل لكل دولة مشاركة في المفاوضات مساراً خاصاً بها .
ثم بدأ مسلسل التسارع العربي للارتماء في أحضان العدو المسالم ، أو الحبيب
المحارب ، دون أدنى تنسيق بين الدول العربية ، ولا تملك أمانة الجامعة سوى إبداء
امتعاضها ودهشتها من سرعة إيقاع عمليات (الصلح المنفرد) الذي حدث من أجله
فيما مضى أشياء وأشياء .
3- ثم جاءت الطامة الداهية ، لتسقط على رأس الجامعة وهي ساهية لاهية ،
إذ جاءها نعيها بلسان فصيح على لسان شيمون بيريز وزير الخارجية الإسرائيلي
عندما أعلن في مؤتمر الدار البيضاء لتنمية الشرق الأوسط : إن إسرائيل يمكن أن
تنضم إلى جامعة الدول العربية مستقبلاً ، بشرط أن تغير اسمها ليكون (منظمة
الشرق الأوسط) ! ! !**

وأذاع التلفزيون الإسرائيلي بعد ذلك : أن إسحاق رابين رئيس الوزراء الإسرائيلي قد طرح على العاهل المغربي مضيف المؤتمر فكرة البدء في خطوات النظام الشرق أوسطي ، وقال له : إن أسباب ومبررات وجود الجامعة العربية ، تعتبر لاغية الآن بعد الخطوات التي قطعت على طريق السلام ، وأصبح الأمر يتطلب استحداث مؤسسة شرق أوسطية جديدة تقبل بانضمام إسرائيل ! .

وهكذا أعلنت نتيجة المصارعة لجولة استمرت خمسين سنة في حلبة (الصراع العربي الإسرائيلي) ، حيث رفع المصارع المتدين (اليهودي) ذراع نفسه ، فوق جثة المصارع العلماني (العربي) .

إن شيئاً واحداً نجحت فيه العلمانية العربية بعد خمسين عاماً من العمل المؤسسي ، وهو : الانتصار لكل المصالح ، عدا مصلحة الأمة ، وما أصدق كلمة أحمد الشقيري الرئيس السابق لمنظمة التحرير الفلسطينية في كتابه (الجامعة العربية) عندما وصف الجامعة بأنها : منظمة إقليمية ، أنشئت لخدمة السياسة الغربية .

ونشهد مع أحمد الشقيري بأنها كذلك ، ونزيد : وكذلك خدمة المصلحة اليهودية ، ولهذا نقول بكل ثقة بعد خمسين عاماً من إنشائها :

نعم ، قامت الجامعة بدورها . !

تأملات
في مسيرة الحركة الإسلامية في اليمن

بقلم :عبد الله أحمد ناصر

الحلقة الأولى

وصلنا هذا المقال من الأخ الكاتب ، وهو نقد موضوعي فيما نحسب فضلاً عن أنه من أساليب النقد الذاتي للحركة الإسلامية الذي نحرص عليه ، وفي الوقت نفسه : نرحب بأي تعقيب موضوعي يلتزم بأدب الحوار ممن يهمه الأمر .. والله نسأل للجميع التوفيق والسداد ..

- البيان -

بين آونة وأخرى يدعو قادة الحركة الإسلامية في اليمن إلى دراسة تجربتهم ، والتأمل فيها ، واستلهام ما فيها من جوانب مضيئة ومشرقة ، واستجابة لتلك الدعوات المتكررة : أسلط في هذه المقالة الضوء على مسيرة الحركة الإسلامية في اليمن منذ قيام الوحدة اليمنية إلى اليوم ، وسأكتفي ابتداءً بالتأمل في مسيرة الإخوة المنضوين تحت لواء التجمع اليمني للإصلاح ، نظراً لكونهم الأكثر عدداً وقدرة والأقدم تنظيماً في الساحة اليمنية المعاصرة على أمل أن تتبعها مقالة أخرى عن مسيرة الإخوة الذين لم ينضووا تحته ، على أنى لا أعتبر اليقظة الرافضية في اليمن والمدعومة من إيران وأنصارها ، والتحرك الصوفي النشط والمدعوم من بعض رجال المال والأعمال في الداخل والخارج جزءاً من الحركة الإسلامية في اليمن ، نظراً للانحراف الكبير والبعد الشديد لأصول الرافضة ومبادئ الصوفية ومجانبتهما لما كان عليه سلف هذه الأمة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، بل أعتقد أن الرافضة والصوفية خطران من الأخطار المحدقة باليمن ، وأن الواجب على كل غيور محاربتهما بقدر المستطاع .

وأعتقد أن حركة عريقة التاريخ ، واسعة الانتشار ، متعددة الإنجازات ، يصعب دراستها وتقويمها من شخص واحد ، وخلال مدة قصيرة ، وفي مقالة صحفية ، بل يتطلب ذلك توافر جهود عديدة ونظرات كثيرة يكمّلُ ويسدد بعضها بعضاً ، ولكني خشيت أن لا يتحقق مثل ذلك ، فرأيت أن أطرح ما لدي مستعيناً بالله (تعالى) ، فما لا يدرك كله لا يترك جله .

وليس لي ابتداءً من هدف إلى إبراز الجوانب الإيجابية في مسيرة الحركة الإسلامية في اليمن إلا دعوة العاملين في الساحة الإسلامية إلى الاستفادة منها واستثمارها ، كما أنه ليس لي من هدف من إبراز سلبياتها إلا دعوة الأحبة

المقصودين بالأمر أن يعملوا على تجاوزها وتلافيها ، على أن ما سيتم طرحه من
آراء سواء أكانت حول الإيجابيات أم السلبيات مما لاعلاقة له بالثوابت الإسلامية :
صواب يحتمل الخطأ ، ورأي الآخرين خطأ يحتمل الصواب ، وليس من هدفي
وعلام الغيوب ذكر العيوب للتشفي والتجريح والانتقاص لحبيب من الأحباب أيّاً كان
وضعه ، وأيّاً كان انتماؤه ، وكل ما في الأمر : الاقتناع بأن خير وسيلة لتصحيح
مسيرة العمل الإسلامي هى : النقد من الداخل ، والنقد البناء لا الهدام ، لأن أي فئة
إسلامية مهما كان فضلها ، ومهما علت رتبتها لاتسلم من النقص والخطأ ، وليست
الإشكالية في الوقوع في الخطأ ، ولكن في الاستمرار عليه ؛ قال رسول الله -صلى
الله عليه وسلم- : كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون [1] ومتى تصورت
أي فئة إسلامية نفسها فوق مستوى الخطأ والنقد فذاك الخطل كله ، بل هو دليل
العجب والكبر ، وعلامة اغترار النفس وخيلائها وشعورها بالكمال ولاكمال ، (نسأل
الله (تعالى) لأنفسنا ولإخواننا العافية والسلامة) ومتى وصل الحال بمجموعة تعمل
للإسلام إلى ذلك ، فعليها وعلى دعوتها السلام .
وسأعتمد في الطرح على المصارحة ووضوح الفكرة والعبارة ، ولن أحرص
على التنميق والمجاملة لعلمي المسبق بسعة صدور إخواني وإحسانهم للظن فيما
أحسب وحملهم للكلام على سلامة القصد وحب الخير .

أولاً : من إيجابيات الحركة الإسلامية في اليمن منذ قيام الوحدة إلى اليوم :

الإيجابيات (ولله الحمد والمنة) كثيرة وكبيرة ، يطول المقام باستعراضها
وتفصيلها ، ولا ينكرها إلا جاحد ، ولا يماري فيها إلا معاند ، ولذا : سأكتفي بذكر
أبرزها ، ومن ذلك :
*** الانتشار الأفقي الكبير للعمل الإسلامي داخل الشعب اليمني سواء أكان ذلك**
في المدن والأرياف من جهة ، أوبين سائر طبقات المجتمع اليمني المختلفة مهنية

وقبلية من جهة أخرى ، ويبرز هذا الانتشار للمنضوين تحت لواء التجمع اليمني
للإصلاح فيما كان يعرف سابقاً باليمن الشمالي ، وفي بعض مديريات محافظتي
(أبين) و (شبوة) فيما كان يعرف باليمن الجنوبي .
* الانتشار الرأسي المتين داخل المؤسسات الرسمية للدولة ، مما أدى إلى
الوصول إلى بعض مواقع المسؤولية ومراكز اتخاذ القرار ، ومحاولة إفادة العمل
الإسلامي من خلالها تأييداً أو حماية سواء أكان ذلك من خلال مجلس الرئاسة سابقاً ، أو على مستوى الوزراء ونوابهم ، أو محافظي المحافظات ، أو مدراء العموم
والنواحي ... وغير ذلك .
* حماية شباب الصحوة وإلجام غضبهم وكبح جماحهم من الدخول في صراع
مسلح مع أعداء الصحوة الإسلامية من علمانيين بشتى فئاتهم ورافضة وصوفية
وباطنية ومن يسير في ركابهم من أصحاب المصالح والشهوات مع توفر السلاح في
الشارع اليمني ووجود استفزاز شديد وتهييج قوي وبخاصة في بداية الوحدة اليمنية
سواء أكان ذلك على لسان كبار المسؤولين ، أو عبر كثير من العلمانيين وعلماء
السوء في وسائل الإعلام المختلفة من : تلفاز ، وإذاعة ، وصحافة ، ومنابر الجمعة ، والمنتديات الثقافية والاجتماعية المختلفة .
* إنكار بعض المنكرات الضخمة مع إعطائها بعداً عقدياً ، وبخاصة في بداية
الوحدة ، كالدستور العلماني الذي قامت على أساسه الوحدة بين الرئيس اليمني وقادة
الحزب الاشتراكي ، ومقاطعة الاستفتاء حوله ، والمنافحة من أجل إغلاق مصنع
الخمر حتى تم تدميره على أيدي بعض الغيورين أثناء دخول جيش الحكومة مدينة
عدن ، وتغلبه على فلول الاشتراكيين والصوفيين ومن سار في ركابهم داخلها .
* حماية وتنمية كثير من مكتسبات الصحوة الإسلامية ومنابرها كالمعاهد
العلمية ، ومناهج التربية الإسلامية في التعليم العام ، وجمعيات النفع العام والخدمات
الاجتماعية ، ومنابر الجمعة ، وحرية الدعوة في المساجد والصحف والمجلات

الإسلامية من محاولات السطو عليها أو تحويرها من قبل العلمانيين والرافضة
والصوفية .
* العمل على الوقوف في وجه التغريب والعلمنة في اليمن ، ومحاولة
التخفيف من آثار الحملة التي يقوم بها سدنة العلمانية والتغريب في البلاد ، سواء
من داخل الحكومة ومراكز التخطيط والتوجيه والإعلام ، أو من خلال الأحزاب
السياسية والنقابات المهنية والمؤسسات الصحفية والشبابية والفنية ، أو من خلال
مواقعهم داخل جامعتي صنعاء وعدن وكليات التربية ومعاهد المعلمين ، أو في
المراكز التنفيذية داخل المحافظات اليمنية المختلفة .
* سبق التيارات العلمانية في الطرح والنزول إلى الشارع اليمني بشرائحه
الاجتماعية والمهنية المختلفة ، وبالتالي : حجبها عن احتواء كثير من عامة الناس ،
وكسب ولائهم العام للإسلام ، وحمايتهم من الوقوف في وجه الإسلام ودعاته ، بل
إن الحركة من خلال ذلك السبق في النزول والكسب لكثير من الجماهير :
استطاعت أن تكوّن رأياً عامّاً إسلاميّاً في الشارع اليمني يناصر الإسلام ويحب
دعوته ، ويظهر الولاء لشريعته ، وينكر الإلحاد والعلمانية بشتى صورها ، وقد
ظهر ذلك في التنادي بتطبيق الشريعة الإسلامية ، وضرورة الرجوع إلى أحكامها ،
ومحاربة كفريات الدستور الذي قامت على أساسه الوحدة اليمنية .
كما أنها من خلال ذلك النزول وذلك الكسب : استطاعت أن تقوي الشعور
بالذاتية الإسلامية والانتماء إلى خير أمة أخرجت للناس لدى كثير من أفراد الشعب
اليمني ، بعد أن حجب بعضهم عن ذلك الجهلُ الشديد بأحكام الدين والتشاغل بالحياة
الدنيا وزخرفها ، أو التأثر بأفكار منحرفة قادته من هنا أو هناك .
كما أنها استطاعت من خلال ذلك أن تزرع الأمل في قلوب كثير من أفراد
الشعب اليمني بغد مشرق للإسلام لما يحمل من مبادئ العدل والخير ومحاربة

الباطل والفساد بشتى صوره المختلفة .
* الوقوف في وجه بعض الحملات التنصيرية في اليمن ، ولفت أنظار
الشارع اليمني إليها ، وإلهاب حماسهم ضدها ، مثل : سب الذات الإلهية ، وتمزيق
المصحف وإلقائه في أماكن لا تليق ، وتنصر شواذ من اليمنيين ، وإيصال ذلك إلى
أبواب القضاء واستصدار أحكام فيها ، مثل : إغلاق بعض المستشفيات ، وطرد
البعثات التنصيرية المتواجدة فيها (لم ينفذ الحكم إلى الآن ، ويبدو أنه لن ينفذ) .
* التمكن من توظيف كثير من العامة في بعض الأعمال الدعوية وأعمال النفع
العام ، مما خفف بعض العبء على الدعاة من جهة ، واستغل بعض طاقات هؤلاء
من جهة أخرى ، بالإضافة إلى التمكن من تربية كثير من الشباب على الجرأة في
الحديث وتعويدهم على المواجهة والخطابة .
* محاولة التخفيف من معاناة عامة الشعب من الأوضاع الاقتصادية المتردية
عن طريق ما تقدمه الجمعيات الخيرية التابعة للحركة من مساعدة للفقراء والشباب
على الزواج ، وكفالة للأيتام والأرامل ، وإقامة لمشاريع المياه ، وإفطار الصائمين ،
وذبح الأضاحي ... ونحو ذلك ، بالإضافة إلى محاولة تخفيف اندفاع الشريك الأقوى
داخل الائتلاف الحكومي في تنفيذ متطلبات صندوق النقد الدولي ، وقيامهم من داخل
الائتلاف بمعارضة رفع الدعم الحكومي عن السلع الأساسية ورفع أسعار المشتقات
النفطية والكهرباء فوق نسبة 100% ، ومطالبتهم بتغيير أعمدة الفساد الإداري
والاقتصادي داخل الحكومة من أجل الوصول إلى إصلاح إداري واقتصادي حقيقي .
* الجهد الكبير المبذول من بعض الدعاة الذين نحسبهم ، والله حسيبهم :
صادقين مخلصين مع قلة في ذات أيديهم ، وضعف في الإمكانات المتوافرة لهم .
وبذلك كله أنجزت الحركة الإسلامية في اليمن انجازات متميزة متعددة
المجالات ، وأصبح حضورها في الشارع اليمني حضوراً فاعلاً ، رفع الصوت

الإسلامي الصادق ، بعيداً عن المزايدة والتهريج والشعارات التي اعتادها الناس من
الأحزاب العلمانية بمختلف فصائلها ، مما جعل كثيراً من العامة والخاصة يلتفون
حول راية الحركة وينصرونها .

ثانياً : من سلبيات الحركة الإسلامية في اليمن منذ قيام الوحدة إلى اليوم :

إذا كان ما سبق جزءاً مهماً من الإيجابيات التي تحسب للحركة الإسلامية في
اليمن ، وهي محل إعجاب وتقدير كل مسلم مخلص مطلع على جهود الإخوة هناك ،
إلا أن أي عمل أيّاً كان لابد من وجود بعض السلبيات والعثرات فيه ، التي تكون
نتيجة الانشغال بالعمل ، وبالتالي : ضعف التخطيط والمتابعة ، أو نتيجة وجود
بعض الأخطاء والتوجهات المعينة داخله ، وسأحاول الاستطراد فيها قليلاً على
خلاف ما فعلت في الإيجابيات لأهميتها ، وحاجة أصحاب الشأن إلى التعرف عليها
لتلافيها ، ولعل من أبرز ذلك ما يلي :

* عدم الوضوح في تبني الحركة لمنهج أهل السنة والجماعة :

من الأمور المحمودة في الحركة الإسلامية في اليمن تميزها بنخبة جليلة من
العلماء والأفاضل الذين جمع بعضهم بين الاطلاع الشرعي الجيد ، والإدراك العميق
لمقتضيات العصر وضروراته ، ولكن بسبب ملابسات اجتماعية معينة ، واتساع
الحركة ، وكثرة أنصارها ، وتنامي اهتماماتها : ضعف اهتمامها بطرح منهج أهل
السنة والجماعة والدعوة إليه ، واكتفت برفع شعارات مجملة الكتاب والسنة ، ونحن
وإن كنا نقدر هذا الطرح ونعتبره صالحاً للولوج في أوساط الشيعة الزيدية في
الخمسينات والستينات نظراً لقوة شوكتهم في ذلك الوقت ، إلا أن الاستمرار عليه
واتخاذه منهجاً وسياسة للحركة إلى هذا الوقت وبالأخص منذ قيام الوحدة إلى الآن
أمر أحسب أنه خاطئ ومرفوض ، لأمور من أهمها :

1- سلبياته العديدة ، ومنها : عدم تصور كثير من شباب الصحوة لأبعاد

وأصول منهج أهل السنة وإدراكهم له ، حتى عند كثير من أولئك الذين ينحدرون
من مناطق سنية ، ومايدركه بعض الشباب منه ناتج عن الفطرة التي نشؤوا عليها ،
لكن بدون العلم بأن هذا هو منهج أهل السنة والجماعة ، مما سهل على كثير من
أصحاب البدع كالأشاعرة إيهام أولئك الشباب أن ماهم عليه هو معتقد أهل السنة
والجماعة .

2- أن المبتدعة من رافضة وصوفية في كثير من مناطق اليمن المختلفة قد
شمروا عن سواعدهم لتدريس بعض الشباب المنتسبين إليهم انحرافاتهم وبدعهم
بالتفصيل ، بل إن بعضهم جارٍ في بناء بعض المراكز العلمية التي تحتوي على
سكن داخلي من أجل تدريس مجموعة من الشباب المحسوبين عليهم ، كما أن
آخرين ساعون على قدم وساق لتجديد الأربطة وإحياء المزارات التي يقع فيها من
الفساد والشرك والباطل ما الله به عليم ، بينما لاحظت وقد أكون مخطئاً ندرة
تدريس منهج أهل السنة والجماعة لشباب الحركة من خلال كتب أئمة السلف المتفق
على جلالتهم ومن تابعهم في القديم والحديث ، ولا أقل من أن تقوم الحركة بتبني
تدريس كتابات أئمة الدعوة الإصلاحية في اليمن في الجوانب العقدية كابن الوزير ،
والحسن الجلال ، وحسين النعمي ، والصنعاني ، والشوكاني ... ونحوهم ، وتعتبر
نفسها امتداداً لمدرستهم .

3- أن عدم الوضوح في طرح منهج أهل السنة والجماعة أفسح المجال
لبعض الوافدين إلى اليمن والمحسوبين على الحركة الإسلامية في بلدانهم والذين
تتلمذوا على أيدي بعض قيادات التيار العقلاني المعاصر ، أو الذين تلقوا العقيدة
على المذهب الأشعري ، أو الذين يوجد لديهم بعض الانحرافات العقدية في مسائل
التوسل والاستغاثة والقبور والاحتفالات البدعية المختلفة ، من تدريس شباب
الصحوة في المعاهد العلمية وبعض مدارس وزارة التربية ، من دون نكير واضح أو

ملاحظة جلية من علماء الصحوة وقادتها .
4- أن عدم الوضوح في طرح منهج أهل السنة والجماعة من قبل الحركة
الإسلامية ، وجهل كثير من شباب الصحوة به : أوهم كثيراً منهم أن منهج أهل
السنة هو ماعليه بعض الأفراد والفئات المنتسبة إلى منهج أهل السنة ، والتي لاقت
كثيراً من حملات التشويه من قبل كثير من قيادات الحركة ، نظراً لاختلافهم مع
أولئك منهجياً أو شخصياً مما سبب لدى كثير من شباب الحركة نفسية رافضة لمنهج
أهل السنة نظراً لربطهم منهج أهل السنة بأولئك الأشخاص المشوهين في أذهانهم ،
كما أدى ذلك إلى اعتقاد بعض الشباب أن منهج أهل السنة محصور في الحديث عن
بعض صفات الرب جل وعلا وأنه لا يعني الدين الخالص النقي الذي بعث الله به
محمداً -صلى الله عليه وسلم- بشموله وعمومه .
5- أن في عدم وضوح الحركة في طرحها لمنهج أهل السنة واكتفائها بدلاً من
ذلك بالطرح المجمل مراعاةً لأهل البدع من الرافضة والصوفية وهم حفنة قليلة ،
ولم تغير تلك المراعاة من موقفهم تجاه الحركة شيء ، وسيستمرون في عدائهم لها
حتى تتبنى ما هم عليه من معتقدات وأفكار منحرفة ، ولقد كان من الواجب على
الحركة أن تبين لهم ولعامة الشعب ضلالهم وانحرافهم ، هذا من جهة ، من جهة
أخرى : فقد خسرت الحركة مئات من الدعاة وطلبة العلم وأعداداً كبيرة من
المتحمسين لمنهج أهل السنة والجماعة في طول البلاد وعرضها ، وهي في أمسّ
الحاجة إلى جهودهم وخدماتهم ، مما يعني أنها بهذا التوجه قد عملت وبأسلوب عملي
يخالف دعوات قيادتها الشفهية المتكررة على شق صف الدعوة وانقسام الدعاة وطلبة
العلم إلى قسمين أو أكثر .
ولا يعني هذا أنني أدعو إلى المواجهة والصراع المتشنج مع المخالفين ، مما
يؤدي إلى فتح جبهات متعددة في الساحة ليس في مقدور الحركة مواجهتها جميعاً في

وقت واحد ، ولكن أرى أنه لابد من الوضوح الهادئ في التعامل معهم ، والدعوة
الجادة لهم إلى تصحيح مناهجهم بالحكمة والموعظة الحسنة (وما كان الرفق في
شيء إلا زانه ، وما نزع من شيء إلا شانه) وحماية أبناء الحركة بكافة الوسائل
والسبل من التأثر بهم ، أو عدم النضج في فهم منهج أهل السنة نتيجة عدم الوضوح
في طرحه .

6- أن عدم وضوح الحركة في طرحها لمنهج أهل السنة ، ورفعها للشعارات
المجملة أدى إلى عدم إعطائها للجانب الاعتقادي ما يستحقه من مكانة واهتمام كما
أعطاه إياه الشارع الحكيم ، واستمر النبي -صلى الله عليه وسلم- في بنائه في
نفوس أصحابه ثلاث عشرة سنة هي مدة العهد المكي بالإضافة إلى استمرار
الاعتناء به أثناء تنزل التشريع في العهد المدني .

7- أن عدم وضوح الحركة في طرحها لمنهج أهل السنة والجماعة سوّغ
لبعض المهتمين أن يقول بأن الحركة الإسلامية في اليمن المنضوية تحت لواء
التجمع اليمني للاصلاح لا تعمل على نشر الفكر الصحيح ، وإنما تحرص على
التوفيق بين الفئات المتواجدة في الساحة اليمنية ذات الأفكار المختلفة ، وتحرص
على عدم حدوث صدام بينها لاغير ، سواء أكانت تلك الفئات هي السلفية والصوفية
الغالية في الجنوب ، أو السلفية والمذهب الزيدي الذي بدأ يميل بقوة إلى الرفض في
الشمال .

هذا ، ولعدم وضوح الحركة في تبنيها لمنهج أهل السنة والجماعة سلبيات
كثيرة ، إلا أن ذلك لايعني بحال أن الحركة الإسلامية المنضوية تحت التجمع اليمني
للإصلاح ليس فيها أحد من المنتمين إلى أهل السنة والجماعة ، أو أن جميع
أطروحاتها الدعوية لا تتوافق مع منهج أهل السنة ، بل إنني أؤكد على وجود نخبة
جليلة من العلماء السلفيين الذين نحبهم ونفخر بهم ، وقد رأيناهم ينافحون عن منهج

أهل السنة بكل صدق وإخلاص في بعض المواطن ، ولكنني أردت حثهم على مزيد
من الاهتمام والعطاء ودعوتهم إلى الحرص على نشر منهج أهل السنة ، وتربية
أبناء الحركة وعامة الشعب عليه ، مع الوضوح في طرحه وتبنيه والدعوة إليه ،
لأن مجرد الطرح العام لا يكفي في كل حال .

*** وجود التباس وعدم تميز في صفوف قيادة الحركة :**

من غير المستغرب أن ينتسب إلى صفوف الحركة و هي التي دعت الجميع
إلى الانضواء تحت لوائها في التجمع اليمني للإصلاح أهل معاصٍ وفسوق ، أو
أهل بِدع وانحرافات فكرية ، وإن كان الواجب على الحركة تجاه أولئك بيان الحق
لهم والاجتهاد في دعوتهم إلى ترك ما هم عليه من انحراف سلوكي أو فكري .

لكن الأمر الذي ينكر على الحركة الإسلامية في اليمن : أن يكون من قادتها
ومن علمائها بعض أهل البدع من معتزلة وزيدية هم أقرب إلى الرافضة بالإضافة
إلى بعض المتجاوزين لتحكيم النص الصحيح ، والداعين إلى تحكيم عقولهم وما
تشتهيه أهواؤهم باسم ما يسمى بمصلحة الدعوة ، حتى إنه ليتراءى للمراقب من
خارج الحركة أن زمامها في المستقبل القريب آيل إليهم (نسأل الله ألا يكون الأمر
كذلك) ، ولست أدري كيف يحتمل أهل السنة داخل الحركة الإسلامية في اليمن
وعلماؤهم خصوصاً التعايش مع أولئك من دون أن تكون لهم خطة واضحة على
المدى القريب والبعيد لنصحهم وتعديل مسارهم وبيان انحراف منهجهم لشباب
الصحوة وعامة الأمة حتى لا يغتروا به ؟ ! .

ولست أنكر مشروعية الدعوة لأولئك ، لكن دعوتهم شيء وتسليمهم كثيراً من
زمام الحركة الإسلامية ، واتخاذ القرار فيها ، والسكوت على ما هم عليه من منهج
منحرف مغاير لمعتقد أهل السنة والجماعة ومنهجهم شيء آخر .

*** تحول قيادة الحركة في الفترة الأخيرة من العلماء إلى الساسة
وبعض مشايخ القبائل :**

في بداية إعلان الحركة الإسلامية لقيام التجمع اليمني للإصلاح بعد قيام
الوحدة اليمنية كان المتابع لأطروحات التجمع مثل : كفر الدستور ، تحريم الخمر
والدعوة إلى إغلاق مصنعه في عدن ، تحريم الربا والدعوة إلى تحويل بنوك الربا
إلى مصارف إسلامية ، محاربة إدارة الاقتصاد اليمني بأسس اشتراكية كما نص
على ذلك الدستور ، محاربة مساواة المرأة بالرجل في الحقوق والواجبات بالمفهوم
العلماني الساعي إلى هتك القيم والضوابط الاجتماعية في المجتمع اليمني وتلاشيها ،
محاربة إلغاء الحدود الشرعية والزكاة ، محاربة الرشوة والفساد المستشري في
أوساط الدولة ، الدعوة إلى تحكيم نصوص الكتاب والسنة والاستدلال بها ، محاولة
جمع الدعاة على كلمة سواء ... وغير ذلك كثير : يحس أن خلفها علماء شرع ، بل
إن الرموز التي كان لها صولة وجولة باسم التجمع في البداية هم علماء أجلاء
وطلبة علم فضلاء ، يعرفهم العامة والخاصة .

إلا أن الملاحظ في الآونة الأخيرة أن الأطروحات قد أصابها بعض الخلل ،
وأن أسهم ما يسمى بالمصلحة قد ارتفعت على حساب النص ، فمن تلميع وتزكية
بعض الزعماء السيئين المعروفين بمواقفهم المعادية للحركة الإسلامية ودعاتها ،
الذين تتقلب مواقفهم في التعامل مع الحركة الإسلامية حسب قوة وضعف حاجتهم
إليها ، إلى وصف بعضهم بالدهاء والفطنة والصدق والشجاعة والشهامة والثبات
على المواقف ، متناسين بأنه لو كان الأمر كذلك : لأعلنوا توبتهم من تاريخهم
الأسود ، ولقاموا بترك ما هم عليه من علمانية وولاء لأعداء الإسلام في الشرق
والغرب ، إلى ضعف إنكار المنكرات المستطاع إنكارها يوماً بعد آخر ، إلى ادعاء
أن عبادة القبور والاستغاثة بها من المسائل الخلافية ومن قشور الدين ! التي لايجوز
التشاغل بها على حساب الأصول والقضايا الكبرى [2] ، إلى تكرار الاتهام لبعض

الدعاة غير المنضوين تحت راية التجمع بين آونة وأخرى بآيات النفاق وخدمة
الأعداء ، ونسبتهم إلى جهات علمانية كالحزب الاشتراكي ، أو اتهامهم بالعمالة
لجهات خارجية ! ! إلى الزعم بأنه لا توجد أحزاب علمانية في اليمن ، لأن قانون
الأحزاب يلزم كافة الأحزاب بأن تعترف بأن الإسلام عقيدة وشريعة ، وأن كافة
الأحزاب بما فيها الحزب الاشتراكي وأحزاب البعث والأحزاب الناصرية قد وافقت
على ذلك ، إلى حضور بعض زعماء الحركة لبعض المنكرات العامة دون
إنكار [3] ... وغير ذلك كثير .

صحيح أن هذا قد يصدر أحياناً من بعض القيادات باجتهادات فردية قد لا
تمثل الحركة أو مجلس الشورى فيها ، لكنها حينما تكون من بعض القيادات الرئيسة
البارزة ، وتتكرر في أكثر من مناسبة ، فإنها في تقديري لن تفهم إلا بصفتها
الرسمية لا الشخصية .

وبعضهم قد يفعلها من باب التكتيك السياسي ... وهذا قد يقبل بحدود مقبولة ،
ولكن الإسراف فيه حتى يصل إلى حد قلب الحقائق تجاوز غير مقبول ، وسيكون له
بالتأكيد نصيب كبير في تضليل كثير من الناس داخل الحركة وخارجها .

كما أن الشخصيات التي بدأت تبرز في قيادة التجمع وتتحدث باسمه في الآونة
الأخيرة هم بعض الشخصيات في أمانة المؤتمر ، ولجنة الحوار السياسي ، وبعض
مشايخ القبائل ، بينما بدأ يتضاءل دور العلماء وطلبة العلم ، ويضعف صوتهم شيئاً فشيئاً .

وكلنا أمل بأن يسعى علماء اليمن وطلبة العلم الشرعي في الحركة ، إلى أن
يستعيدوا دورهم البارز في قيادة الحركة الإسلامية عموماً و التجمع اليمني للإصلاح
بوجه أخص ، حتى لا تغرق السفينة ، وينفلت العقد ، وتقاد الحركة الإسلامية في
اليمن إلى انحرافات عقدية وفكرية لا تحمد .

.. (يتبع)

---

(1) أخرجه ابن ماجة ، ج2 ، ص1420 ، ح4251 ، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجة ، ح 3428 .

(2) بادر بعض الغيورين في التجمع اليمني للإصلاح إلى استصدار بيان باسم التجمع ينفي كون عبادة القبور والطواف حولها والاستغاثة بها من قشور الدين ومن المسائل الخلافية غير المعتبرة ، كما بينوا في أكثر من جلسة خاصة بأن من صدر منه ذلك البيان هو شخص قيادي في التجمع حرص على سمعة التجمع من أن تلطخها قيادات الأحزاب السياسية الأخرى من دون أن يكون لديه علم شرعي ، ولكن الملاحظ أن ذلك البيان لم يلق الاهتمام المطلوب من وسائل الإعلام المختلفة سواءً ماكان منها تابعاً للإصلاح أو تابعاً لوسائل الإعلام الرسمية بخلاف البيان الأول والذي طار في الناس طيران النار في الهشيم ، ولنا عتاب آخر على إخواننا وهو كيف يعطى أمثال هذا الرجل دوراً قيادياً بارزاً في قيادة التجمع ؟ كيف ؟ .

(3) قد توجد بعض المبررات والاجتهادات لدى بعض من يحضر تلك اللقاءات التي تقع فيها منكرات كبيرة بغض النظر عن صوابها أو خطئها إلا أن عامة شباب الصحوة وأفراد الشعب لا يعون تلك المبررات التي هي مستقرة في ذهن من اجتهد ولم تخرج منه إليهم حتى لا يغتروا بها ويظنوا أنها حق وموافقة للشرع .

من تاريخ الأحزاب الشيوعية العربية
وموقفها من قضية فلسطين

بقلم : د .محمد آمحزون

إن تاريخ الأحزاب الشيوعية في البلاد العربية يشير إلى ظاهرة مهمة جدّاً في نشأة هذه الأحزاب ، وفي مواقفها من النزاع العربي الإسرائيلي ، وفي تأثرها بالعناصر اليهودية التي حرّكتها الصهيونية العالمية لإقامة دولة إسرائيل .

ويمكن القول بكل يقين : بأن الحركة الشيوعية في العالم العربي إنما أنشأها اليهود الذين كانوا أنشط العناصر داخل هذه الحركة ، وفي تلك الفترة بالذات من تاريخ قيام الأحزاب الشيوعية في العالم العربي ، أخذت بعض الدعاوى تنتشر في الأجواء السياسية حول شرعية حق اليهود القومي في فلسطين ، لتلتقي هذه النظرة التي عمل الشيوعيون على ترويجها مع النظرة الصهيونية والأهداف التي تعمل لها .

إن تأثر الماركسيين العرب بالعناصر اليهودية على مستوى القيادة والتنظيم السياسي ، كان له بالغ الأثر في جعل الماركسيين يعمون عن واقع وطنهم ، ويتغاضون عن تمزيق بلادهم ، إذ كانوا لا يفكرون من خلال عقولهم ، وإنما من خلال المخططات التي تضعها الشيوعية الدولية والصهيونية العالمية ، ويعملون هم على تنفيذها بشكل تلقائي دون أن يجهدوا أنفسهم في تحري المواقف ، ليروا ما إذا كانت تلك المخططات الموضوعة تصلح للعالم العربي الإسلامي وتتفق مع حقه في

الوجود أم لا .

كان الحزب الشيوعي الفلسطيني أول حزب شيوعي تأسس في المنطقة عام (1919م) ، وكان جميع عناصره من اليهود الروس الذين حملوا بذور الفكرة الأولى إلى فلسطين . وفي عام 1924م تأسس الحزب الشيوعي في لبنان ، حيث ساهم بعض العناصر اليهودية الوافدة من فلسطين في إنشائه ، وهي التي أوكلت إليها مهمة نشر الفكرة الشيوعية والإشراف على تنظيم خلاياها في منطقة الشرق الأوسط [1] .

وفي نهاية عام 1925م كانون الأول (ديسمبر) انعقد المؤتمر الوطني الأول للحزب الشيوعي ، وانتخب لجنته المركزية من سبعة أعضاء ، وظل تيبر اليهودي الروسي محتفظاً بأمانة الحزب العامة ، وكان يعرف عادة باسم شامي ، حيث درج معظم الأعضاء القياديين في الحركات الشيوعية على استعارة أسماء أخرى ، وهو تقليد يهودي [2] .

وقد ظل الصراع محتدماً في الحزب منذ عام 1928م حتى عام 1932م ، حين تمكن خالد بكداش من أن يبلغ مركز زعامة الحزب بترشيح جاكوب تيبر المبعد إلى فلسطين وتزكيته ، وتقدم معه وجوه ثلاثة جديدة هم : نقولا شاوي و فرج الله الحلو و رفيق رضا الذي قدر له أن يلعب بعد ثلاثين عاماً دوراً كبيراً في فضح أسرار الحزب واتصالاته [3] .

ففي عام 1959م خرج رفيق رضا على الحزب وكان عضواً في قيادته المركزية ليروي بعض تاريخه ، ويسلط الضوء على الجوانب المظلمة فيه ، وقد كتب في ذلك الحين بياناً نشرته جريدة (الجماهير) السورية ، جاء فيه : في عام 1932م وفد إلى بيروت عدة مندوبين شيوعيين يهود حملوا مبالغ وافرة من المال إلى قيادة الحزب الشيوعي في سورية ولبنان ، وأذكر منهم أميل و أوسكا و مولر ، وقد أبدلت لهم شخصياً قسماً من الأموال التي حملوها بالعملة المحلية آنذاك ، وفي

عام 1938م حملت إلى الحزب مبلغ خمسة وعشرين ألف فرنك ، كان الحزب
الشيوعي الفرنسي قد قرر آنذاك وضعها تحت تصرف الحزب الشيوعي السوري ؛
لتوسيع حملته من أجل إقرار المعاهدة الفرنسية البغيضة ، ومحاربة الاتجاه الوطني
في ذلك التاريخ ، هذا مع العلم أن خالد بكداش قد نقل بنفسه مبلغاً آخر حين كان في
باريس مشتركاً في مؤتمر (آرل) الشيوعي الفرنسي [4] .

ولم يكتف (الحزب الشيوعي السوري اللبناني) بذلك ، ولم يقف ارتباطه
الفكري والمالي بالعناصر اليهودية عند هذا الحد ، فقد استعار أسماء صحفه التي
أصدرها من أسماء الصحف التي أصدرتها الحركة الشيوعية اليهودية في فلسطين ؛
فاسم (صوت الشعب) وهي الصحيفة السرية للحزب الشيوعي في سورية ولبنان
ترجمة حرفية لاسم الجريدة العبرية للحزب الشيوعي اليهودي (كول عاهام) ، واسم
(النور) وهي الصحيفة العلنية للحزب التي أصدرها في دمشق عام 1956م منقول
حرفياً عن اسم صحيفة (الحزب الشيوعي الإسرائيلي) التي أصدرها في فلسطين
عام 1934م [5] .

وقد سار (الحزب الشيوعي العراقي) في الخطة نفسها في تعريب الأسماء
اليهودية في الصحف التي أصدرها ، إذ حملت صحيفته السرية أيضاً عام 1959م
اسم (صوت الشعب) أسوة بالصحيفة اليهودية (كول عاهام) [6] .

ولذلك : لم يكن غريباً حين جاءت القضية الفلسطينية أن نجد (الحزب
الشيوعي السوري اللبناني) وبقية الأحزاب الشيوعية في العالم العربي تتخذ موقفاً
معادياً للحق الفلسطيني المغتصب ؛ مرتبطة في ذلك وملتقية بالاتحاد السوفييتي ،
ومع الصهيونية العالمية ، ولا غرابة في ذلك ؛ إذ أحسنت العناصر اليهودية تنشئتها
وتوجيهها واصطفاء قياداتها .

فبشأن حقيقة موقف (الحزب الشيوعي السوري اللبناني) من قضية فلسطين

يقول رفيق رضا عضو اللجنة المركزية المنشق : ... وكانت قيادة الحزب الشيوعي
بمثل حماس ابن جوريون على بعث الدولة اليهودية في فلسطين ؛ فإسرائيل في
نظرها واحة من واحات الديموقراطية في الشرق الأدنى ، والشعب الإسرائيلي
المشرد لابد وأن يلتقي في أرض الميعاد ، وأن واجب التضامن الأممي في عرف
القيادة المذكورة هو من صلب المبادئ الماركسية ، ولذا : فوجود إسرائيل له في
عرفها مبرراته الإنسانية التي تتخطى المبررات والوقائع القومية ، ومنذ اليوم الأول
لكارثة فلسطين أو منذ اليوم الأول لإعلان التقسيم ووقوف الدول الكبرى إلى جانب
الصهيونية بما فيها الاتحاد السوفييتي ، منذ ذلك اليوم المشؤوم : انحازت قيادة
الحزب الشيوعي إلى جانب الرأي الاستعماري الصهيوني ، ونادت بعدالة التقسيم ،
ودعت إليه ؛ كما لو كانت قيادة تجري في عروقها دماء إسرائيل ، وهي قد التزمت
جانب الاستعمار والصهيونية
علناً وصراحة على
لسان دعاتها وفي بياناتها وصحفها ، وقد قوبلت خيانتها هذه بسخط عربي عارم زلزل الأرض تحت أقدامها ، وانهالت لعنات العرب عليها حتى لم يعد بوسع شيوعي في سورية ولبنان أن يعلن
شيوعيته [7] .

وقد تبنى الحزب فيما بعد دعوة الصلح مع إسرائيل صراحة ، وكان يوزعُ في
سورية سرّاً مقالات صموئيل ميكونيس أمين عام (الحزب الشيوعي الإسرائيلي)
المنشورة في جريدة (الكومنجورم) : في سبيل سلم دائم ، الداعية إلى الصلح حلاً
وحيداً لمشكلة الخلاف ، ولقيت مقالات ميكونيس تأييد قيادات الأحزاب الشيوعية في
المنطقة العربية جميعاً ، تلك التي ظلت تنظر إلى النزاع العربي الإسرائيلي من
زاوية الحكام في إسرائيل ، لا من مبدأ وجودها [8] .

لقد ظلت الأحزاب الشيوعية العربية تتهم حكام إسرائيل اليمينيين بأنهم عملاء
للاستعمار دون المساس بكيان إسرائيل أصل المشكلة ، ولا بموضوع الدولة اليهودية

في فلسطين ، وهو أصل الخلاف .
ويعد هذا الموقف في حد ذاته تحريفاً للنظرة إلى القضية الفلسطينية ،
وإغراقها في المفهوم الشيوعي الجديد الذي يهاجم حكام تل أبيب ويسكت عن دولة
إسرائيل ، وذلك يعني : أن ارتباط إسرائيل بالغرب هو ما يغيظ الشيوعيين ولا
يرضيهم ، فإذا ارتبطت إسرائيل بموسكو غدت شيئاً آخر : (دولة صديقة محبة
للسلام) ، يدعو لها الشيوعيون العرب بالسلامة وطول البقاء ! !
أين إذن جوهر المشكلة ؟ أليس هو إسرائيل ذاتها ، الكيان الذي اغتصب حق
الفلسطينيين وأرضهم ووجودهم ، واضطهد شعباً بأكمله بين أسير وقتيل وشريد ؟ !
أين حمامات الدماء التي اقترفتها أيدي الإرهابيين الصهاينة في فلسطين ،
وراح ضحيتها آلاف النساء والشيوخ والأطفال والشباب ؟ !
أين مذابح قطاع غزة والضفة الغربية ، وصبرا وشاتيلا ، ودير ياسين .. التي
كان على رأسها مثل السفاح بيجن الحائز على جائزة نوبل للسلام ؟ ! !
فليست فلسطين ، ولا القضية الفلسطينية ، ولا الحق العربي الإسلامي هو
المهم بالنسبة للأحزاب الشيوعية العربية ، بل كان المهم لديهم أن تتعاظم القوة
السوفييتية الأم في المنطقة ، وينمو نفوذها ويبسط سلطانها ، مادامت هذه القوة تجسد
أحلامهم في الحكم ، وتطلعهم يوماً ما إلى ذروة السلطة ، ومادامت هي التي ترفدهم
بالمال ، وتوفر لهم في بلادها وفي البلاد الأخرى لذائذ الحياة في فنادقها ونواديها
تحت غطاء عقد المؤتمرات والمهرجانات .
وعلى الرغم من أن قضية فلسطين كانت تطرحها الأحداث كل يوم ، وبشكل
أحدّ وأعنف مع تعاظم الخطر الإسرائيلي ، فقد ظل الشيوعيون على موقفهم الأول
منها ، وظلت سياستهم ومواقفهم تدفع بالقضية الفلسطينية إلى الجوانب والهوامش ،
بالاعتراض على اتجاه الحكم الإسرائيلي دون المساس بالجوهر الأصل وهو أصلاً
اغتصاب أرض فلسطين .

فدعوتهم كان هدفها ربط إسرائيل بالمعسكر الشيوعي كما هو هدفها ربط
العرب إلى هذا المعسكر ، وفي إطار التبعية هذه تجد المشكلة الفلسطينية حلها في
الإخاء اليهودي العربي .

ومن الملاحظ أن (الحزب الشيوعي السوري اللبناني) لم يكن وحده الحزب
الذي أسسه اليهود ثم اختاروا لقيادته عناصر معادية لكل اتجاه عربي فضلاً عن
الاتجاه الإسلامي ؛ فالحزب الشيوعي المغربي : قد أسسه اليهود أيضاً تحت قيادة
ليون سلطان في عام 1943م ، وهو يهودي مغربي كان يعمل في سلك المحاماة [9] **.**

وقد ظل الحزب الشيوعي المغربي (حزب التقدم والاشتراكية حالياً) ذيلاً
للحزب الشيوعي الفرنسي ، واستمر ذلك بعد الاستقلال مع التبعية المطلقة للاتحاد
السوفييتي [10] **.**

ومن الملاحظ أن علي يعتة (زعيم الحزب حالياً) قد تسلم مهام الأمين العام
للحزب المذكور بعد وفاة ليون سلطان وهو من أصل جزائري ، وقبل مجيئه إلى
المغرب واتصاله بليون سلطان في الدار البيضاء كان عاملاً في فرنسا ، وهناك
حصل على الجنسية الفرنسية [11] **.**

ولا يخفى الاتصال الوثيق بين علي يعتة والجالية اليهودية في المغرب ؛ فقد
ظهر بمناسبة عيد رأس السنة الميلادية لعام 1994م في معبد يهودي مرتدياً طاقية
اليهود التقليدية ، وهو يستمع إلى الحَبر الكبير الحزّان داخل السنياغوغ [12] **.**

ونسبة المنخرطين اليهود في الحزب الشيوعي المغربي لم تبلغها أي نسبة
أخرى من انخراطاتهم في التكتلات اليسارية والتجمعات النقابية الأخرى كالاتحاد
الوطني لطلبة المغرب والاتحاد المغربي للشغل رغم أنها كانت فيها نسبة غير قليلة
من المسؤولين اليهود [13] **.**

كما أن الذين كانوا يشرفون على تعذيب المقاومين المغاربة في السجون في
عهد الحماية كان من بينهم اليهود ، وكانوا أكثر نشاطاً في التعذيب ، وأشد حقداً

عليهم من غيرهم [14] . بل إن من اليهود المغاربة من يعترف بذلك الموقف
المشين ؛ يقول إسحاق ليفي في مقال له في صحيفة (العلم) المغربية : إن الحقيقة
التي لا تخفى على أحد هي أن الأقلية اليهودية بالمغرب عُزلت واعتزلت كثيراً عن
الروح الوطنية ، وذلك بفضل جهود الاستعمار من جهة ، ومن جهة أخرى بواسطة
التعاليم المعطاة لهم من طرف (الميثاق الإسرائيلي العالمي) [15] ومن بين
الشيوعيين المغاربة اليهود البارزين : إبراهام السرفاتي أبرز قيادات منظمة (إلى
الأمام) الماركسية ، والكاتب في مجلة (أنفاس) سابقاً .
وكذلك نبتت الأحزاب الشيوعية العربية الأخرى بغرس ورعاية اليهود في
مصر والعراق[*] غير أن المهم في هذا المجال بالذات مواقف الشيوعيين العرب من
القضية الفلسطينية ، أي : موقفهم من قضية الأمة
الإسلامية في معركتها المصيرية ، وإذا كان يحق للاتحاد
السوفييتي أن يتصرف كدولة ، وأن يعمل وفق مصالحه
وإن خالفت مصالح الآخرين فكيف يحق لمواطنين عرب أن يصروا على التعامل
معه والتبعية له باعتبار أنه عقيدة لا دولة ، وأنه يعمل وفق المبادئ لا المصالح ،
وأن يتبنوا بالتالي مواقف تلك الدولة التي لا تأبه إلا لمصالحها ، ولا تعمل إلا لتنفيذ
مخططاتها القريبة والبعيدة .
وتجدر الإشارة إلى أن الأحزاب الشيوعية العربية اشتركت في تأييد تقسيم
فلسطين ، وفي الدفاع عن مبدأ دولة إسرائتيل ، وفي الهجوم على الرجعية العربية
بوصفها مسعرة نار الخصام بين الشعبين العربي واليهودي ! ، وعدوة الحق !
اليهودي في إقامة وطن قومي لهم في فلسطين ، وبلغ بالشيوعيين العرب التحدي
لمشاعر الأمة العربية الإسلامية أن يطالبوا الحكومات في البلاد العربية بالاعتراف
بدولة إسرائيل ، وأن ينظموا في كل من سورية والعراق وفلسطين ومصر
مظاهرات شيوعية هزيلة تؤيد حق الشعب اليهودي في إقامة دولة إسرائيل بعد أن

أقرت هيئة الأمم المتحدة في 29 تشرين الثاني (نوفمبر) عام 1947م مشروع تقسيم
فلسطين إلى دولتين : عربية ويهودية [16] .
فهذا (الحزب الشيوعي السوري اللبناني) يعتبر حرب 1948 ضد إسرائيل :
مؤامرة رجعية دنيئة استعمارية ، هدفها بذر الخصومة والعداء بين الشعبين العربي
واليهودي ، ورفع شعار (إلى الاتحاد في سبيل سحب الجيوش من فلسطين) [17] .
ودعا (الحزب الشيوعي العراقي) الحكومات العربية الخائنة على حد قوله إلى
الاعتراف بإسرائيل منادياً : فلتسقط الحرب بين الوطنيين والديموقراطيين العرب
واليهود لإحباط خطط الاستعمار والرجعية ، ولتحيى الصداقة العربية
اليهودية ! [18] .
وكتب في صحيفته السرية (القاعدة) : إن الشعب العراقي يرفض بإباء أن
يحارب الشعب الإسرائيلي الشقيق [19] .
أما الشيوعيون العرب في فلسطين : فقد وقفوا منذ اللحظة الأولى إلى جانب
إخوانهم الشيوعيين اليهود مطالبين بحق اليهود في إقامة دولة إسرائيل واستقلالها
عن العرب ، وطالبوا بإجراء مفاوضات مباشرة ما بين إسرائيل والحكومات العربية ، وشددوا على ضرورة سحب القوات العربية المعتدية من إسرائيل [20] .
على أن الحزب الشيوعي المصري قد بلغ نهاية المطاف انغماساً في حمأة
التآمر والخيانة الصريحة ؛ فجاء في بيان له : لقد عانى الشعب اليهودي في فلسطين
اضطهاداً لمدة طويلة ، إن الشعب اليهودي يريد أن يحصل على استقلاله الذاتي ،
وإن فرض الوحدة مع العرب تلك الوحدة التي يرفضها الشعب اليهودي معناه أولاً :
أننا نناقض مبدأ حق تقرير المصير [21] .
وعاد الحزب نفسه ليكتب في بيان آخر له : إن اليهود يكوّنون اليوم شعباً
ديموقراطيّاً ! وتزداد سيطرتهم على حكومتهم يوماً بعد يوم ، في حين أن الحكومة
العربية في فلسطين حكومة فاشية ! ! ... وإن القضاء على الدولة اليهودية وإخضاع

اليهود لهذه الحكومة العربية معناه القضاء على واحة الديموقراطية التي يمكن أن تكون ذات تأثير حسن على الجزء العربي في فلسطين ، وتلعب دوراً إيجابيّاً في الشرق الأوسط [22] .

أما (المنظمة الشيوعية) فقد عالجت في أواخر عام 1948م النزاع العربي الإسرائيلي في مقال افتتاحي نشرته صحيفة (صوت البروليتاريا) في عددها الثالث ، فقالت : في 15 مايو (أيار) 1948م غزت ! جيوش البلاد العربية فلسطين ، هناك حرب قائمة في الشرق الأوسط منذ ستبعة شهور ، ولكننا إذا درسنا هذه الحرب بتعمق لوجدنا أنها ليست سوى حرب عنصرية ، لقد أملى الاستعمار البريطاني هذه الحرب وأعد لها منذ سنين طويلة ليدافع عن مركزه في الشرق الأوسط ، إن هذه الحرب هي واحدة من مصادر الحرائق الكثيرة التي تشعلها الرجعية العالمية ، وذلك بهدف خلق ترسانات من بعض المناطق التي يريدون استخدامها كنقط للهجوم ضد الاتحاد السوفييتي ، وأخيراً فإن هذه الحرب موجهة اليوم ضد الخطر الذي تمثله البروليتاريا الثورية في فلسطين (تعني إسرائيل) [23] .

إن في هذه العبارات من التمويه والمغالطة ما لا تخفى ؛ فالاستعمار البريطاني لم يتدخل في الشرق الأوسط إلا لمصلحة إسرائيل ، فهو الذي أصدر وعد بلفور ، وفتح باب الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وخطط بكل ما يملك من وسائل بتنسيق مع الصهيونية العالمية لإقامة الكيان اليهودي في فلسطين المحتلة ، ولسنا ندري أي رجعية عالمية يعني هؤلاء ، وقوى الغرب والشرق ، اليمين واليسار ، أمريكا والاتحاد السوفييتي وأوروبا جمعاء كانت في صف إسرائيل في مؤامرة عالمية استهدفت الوجود العربي الإسلامي في فلسطين .

ذلك كان مجمل مواقف الأحزاب الشيوعية العربية من موضوع فلسطين وإسرائيل ، وقد حرصت هذه الأحزاب أن تظل منسجمة مع مواقف الاتحاد السوفييتي في الأمم المتحدة وموافقته على قرار التقسيم .

فكيف يرجى أن تحرر هذه الأحزاب المجتمعات العربية الإسلامية من تركة الجهل والذلة اللذين ورثتهما من الاستعمار الصليبي ، وكرسهما شرذمة من الحكام المستبدين الذين بذلوا ولاءهم ومنحوا تأييدهم للغرب ؟ ! .

وكيف يؤمل أن تنهض هذه الأحزاب بالأمة ، وهي التي ارتمت في أحضان يهود الشرق ، وسلمت لهم مقاليد أمورها بتنفيذ تعليماتهم وخططهم الموجهة لمناصرة إسرائيل ؟ ! ، وصدق الشاعر العربي في هذا الصنف من الناس :

ونشحذ من يهود الشرق عدلاً ... كمن تَخِذَ الغراب له دليلا

أليس من المخجل زرع استعمار جديد في قلب العالم الإسلامي ، وهو الاستعمار الصهيوني العدو اللدود للمسلمين الذي ما فتئ يضع بتنسيق مع الصليبيين كل العراقيل والعقبات التي تحول دون تقدم البلاد الإسلامية ونهضتها .

إن السياسة الشيوعية والسياسة الصهيونية في الساحة العربية ، وما يحدث من تنسيق بينهما : تعتبران من أشد أنواع السياسات مكراً وتآمراً ، وإن الاتحاد السوفييتي بمنظومته الحزبية العربية كان طرفاً في تلك المؤامرة الدنيئة التي أتاحت للمتاجرين بالقضية الفلسطينية أن يتقدموا للزعامة والقيادة ، وفي الثورة الفلسطينية أوضح مثال على هذا ؛ فعندما تراجع المسلمون وتخاذلوا دُفعت بعض القيادات العلمانية إلى السطح ، وانضوى تحت ألويتهم أبناء المسلمين المخدوعين ، وتاجر عرفات و جورج حبش و نايف حواتمه ... وغيرهم بدمائهم وبنوا على جماجمهم مجداً أثيلاً .

إن اليهود بدؤوا منذ القرن التاسع عشر على الخصوص في التطلع والتخطيط لإقامة كيان صهيوني في فلسطين ، وقد كانوا يعلمون جيداً أن ليس بإمكانهم أن يطؤوا أرض فلسطين بأقدامهم وأن يقر لهم قرار فيها إلا في حالة ضعف المسلمين وتخلفهم ، كما كانوا يدركون أن الإسلام هو السر الحقيقي لقوة المسلمين ونهوضهم ؛

ولذلك أقدموا بما لديهم من مكر وخداع وهيمنة على وسائل الإعلام المختلفة على
نشر الفكر الشيوعي ، وتمويل الأحزاب الشيوعية وتأسيسها في البلاد العربية ،
ونشر الإلحاد .. وغير ذلك من المفاهيم العلمانية المادية التي تدعو المسلمين إلى
فصل الدين عن الدولة وعن الحياة ، والتحلل من الأخلاق والقيم الإنسانية .
وقد كان ذلك تحت ستار الشعارات الخادعة المضللة ؛ فتغلغلت تلك الأفكار في
عقول كثير من الشباب المضللين الذين فقدوا التوجيه الصحيح والفهم العميق للإسلام
لأسباب داخلية أهمها : غياب الإسلام عن الساحة كنظام
حضاري ومنهج حياة شامل ، ولأسباب خارجية أهمها : الغزو الشيوعي الصهيوني والصليبي للعالم الإسلامي ،
واستيراد أساليب وأنظمة ظاهرها التقدم والتحرر ، وباطنها الاستلاب والاحتواء
والجمود ، فقد جرب المنتسبون إلى الإسلام مختلف الأنظمة الوضعية من ليبرالية
واشتراكية فلم تزدهم إلا ذلة وجموداً وتأخراً وتبعية للغير ، علماً بأن الظروف التي
مرّت بها أوروبا وجعلتها تكره الدين بمفهومه الكنسي المحرف الضيق هي ظروف
ليست موجودة في الإسلام (ولله الحمد) .
وقد استغل الشيوعيون اليهودُ وعلى رأسهم ماركس معركةَ الدين والعلم ،
والدين والدولة في أوروبا للتمويه والمغالطة وتعميم الأحكام بالقول : إن الدين أفيون
الشعوب أي : الدين عامةّ وأنه يتعارض مع النظر العقلي ، وهي شبهة لها مجالها
الحقيقي في واقع الكنيسة والفكر الغربي ، بينما لا نجد لها أي أثر في الإسلام
والفكر الإسلامي ، ومن الملاحظ إذن : أن الحملات التي توجه ضد الدين الحق
وهو الإسلام إنما توجه من قِبَل دعاة المذاهب المادية وعلى رأسهم اليهود ضمن
مخطط رهيب يتبلور من خلال الغزو الفكري الذي حاول بمختلف الأساليب تهميش
أثر الإسلام في عقر داره ، وإيهام المخدوعين من أبناء هذه الأمة أن لا سبيل للتقدم
إلا بإبعاد الإسلام عن مجالات الحياة المختلفة ، هذا كسلاح لتركيز السيطرة اليهودية

والتمكين لها في البلاد العربية الإسلامية ، إذ يدرك اليهود جيداً أن الإسلام يقف سدّاً
منيعاً في وجه أي احتواء أو تبعية أو تنازلات ، لا سيما إذا كان الأمر يتعلق بأرض
إسلامية كفلسطين ، وتهجير شعب مسلم بأكمله وتشريده .

---

(1) قدري قلعجي : تجربة عربي في الحزب الشيوعي ، ص49 .
(2) الغادري : التاريخ السري للعلاقات الشيوعية - الصهيونية ، ص159 .
(3) قدري قلعجي : تجربة عربي في الحزب الشيوعي ، ص58 .
(4) صحيفة الجماهير السورية ، 13 تموز (يوليو) 1959 .
(5) الغادري : التاريخ السري للعلاقات الشيوعية - الصهيونية ، ص162 .
(6) المرجع نفسه ، ص162 .
(7) المرجع نفسه ، ص171 .
(8) المرجع نفسه ، ص172 .
(9) Rabert Rezette les politipues marocains P 162 .
(10) العربي الناصري : الاندحار الماركسي في العالم الإسلامي ، ص6 .
(11) Rabert Rezette; loc-Qp-cit P165 - 166 .
(12) المشهد المذكور موثق بصورتين لعلي يعتة ، وهو داخل المعبد اليهودي ، التقطهما مصور الأسبوع السياسي انظر : الأسبوع الصحافي السياسي ، 7 يناير 1994 ، ص1 ، 7 .
(13) مجموعة من المؤلفين : التاريخ الحديث والمعاصر ليهود المغرب ، ص 54 .
(14) صحيفة العلم المغربية ، 28 كانون الأول (ديسمبر) 1955م .
(15) قدري قلعجي : تجربة عربي في الحزب الشيوعي ، ص144 .
(16) المرجع السابق ، ص156 .
(17) أضواء على القضية الفلسطينية ، من منشورات الحزب الشيوعي العراقي ، أب 1948 .
(18) صحيفة القاعدة عدد رقم 11 ، عام 1963م .
(19) قدري قلعجي : المرجع السابق ، ص156 .
(20) صحيفة صوت البروليتاريا 3 تشرين الثاني (نوفمبر) 1948م .
(21) المرجع نفسه ، 3 تشرين الثاني (نوفمبر) 1948 .
(22) صحيفة صوت البروليتاريا ، 3 تشرين الثاني (نوفمبر) 1948 .
(23) صحيفة صوت البروليتاريا ، 3 تشرين الثاني (نوفمبر) 1948 .
(*) أنظر : نهاد الغادري : التاريخ السري للعلاقات الشيوعية الصهيونية ، قدري قلعجي : تجربة عربي في الحزب الشيوعي ، أنور الجندي : هزيمة الشيوعية في عالم الإسلام .

نص شعري

نجمان وعتمة ليل

بقلم : تركي المالكي

قصة مستعادة :

جاءني في كفه خيط وإبرة !
و الرجالُ الجوفُ سورٌ حولهُ ..
تحرُسُ غَدْرَهْ !
ها جبينٌ غائرٌ يقتربُ الآنَ ..
وطرفٌ مدّهُ إذ مدّ ذُعْرَهْ !
خاطَ لي عينَيّ .. ثم احتدّ ..
يطوي شفتيّ !
وهو لا يكظم .. فُجْرَهْ !
والهدى يغزِل فَجْرَه !

....
.... ؟
عاد يطوي خلفه الليلَ ..
وخيطٌ .. من دماءْ ..
رشّ أرضي فابتدتْ رحلتَها ..
نحو الضياءْ !
آه .. ما أحلى الدماءْ !
آه .. ما أروع أن تسكب ناراً ..
فوق فحمٍ .. جفّ نسغُ الجمر فيهِ
حين أغفى بين أسفار الشتاءْ ! !
تحفِرُ الذاكرةَ العطشى ..
فتخضلّ شراراً .. وانتماءْ ! !

ريادة :

نجمان يشقان .. إزارَ الليلْ ..
يرشان على نخل الأرض رحيقَ الضوءِ ..
حريقَ شياطين الكاهن إذ يُرسلُهمْ ..
يسترقون السمعَ ! فيُؤذَنُ بالويلْ !
هو يخلِطُ قطرةَ نبعٍ عذب جارٍ ..
ببحارٍ راكدةٍ من ملح
(الكذب / الكفر) العَريانْ !
تكتشف النخلُ شموخَ أعاليها ..
تمحو أشواقُ الثمر لياليها ..
تسري فيها .. عدوى الخصبِ
فتخضرّ أمانيها ! ! (...)

فتح :

إنسانْ ..
مزّقَ قطنَ الآذانْ ..
فضّ غشاوةَ عينيه النجمانْ !
إنسانٌ .. إنسانانِ .. أناسٌ .. الإنسانْ ! !
تنداحُ خيوطُ النجمين غيوثاً
ترتحلُ النوءْ
تتمدّدُ .. بُسُطاً من ضوءْ ..
تفترشُ الأرضَ المنكوبةَ بالسحر وبـ العُمْيانْ ! !

احتضار :

الغبارْ ...
أزّ إعصارَهُ .. ثم ثارْ !
ساقَ أعوانَهُ .. واستشارْ (؟ !)
وابتدا رحلةَ الإنهيارْ ! ..
حينما مدّ لـ النجم طغيانَهُ ..
واحتوى في السراديبِ بركانَهُ ..
أتغُلّ السراديبُ .. نوراً .. ونارْ ؟ !

استشراف :

أسافرُ عبرَ العقودِ ..
إلى القابِل !
يحدثُني زمَنُ الخصب عن طللٍ خاملِ !
وعن غرقدٍ ذابلِ ! !
قيل لي :
كان يوماً يؤُزّ الأعاصيرَ ..
كانت تُطيعُ ..
وتجلدُ نخلي بسوط الغبارْ ..
قيل لي :
كانت الخاتِمة ..
أن تطاولَ عُنْقُ الأعاصيرِ ..
واحتبسَ النخلَ ..
لفّ الخناقَ عليها ..
وكبّل نجمين بين يديها ! ..
وأدخلها بين أسوارهِ ..
كي يحُدّ امتدادَ الهُدى في المدى ..
فلما اعتدى ارتدّ واشتدّ .. حبلُ الردى ..
على عُنُق الكاهنِ ! !
وما إنْ ....
حتى هوى وانسحقْ ! ..
تحت ضوء النجوم .. احترقْ ! !
إنه الغيثُ جاءَ ..
الغبارُ زهقْ !
وأمِتْ عزفُ قطرِ السماء تجمّعَ ..
بين النخيل اصطفقْ ! !
والنجومُارتدتْ ضوءها ..
دفقَها ال (كان) ! ما بين سور الغبارْ ؟
كذّب الآن عينُ اليقين أحاديثَ قبلُ ادّعتْ ..
أن ضوءَ النجوم اختنقْ ! !
آهِ .. كلا ورب الفلقْ !
آهِ .. كلا ورب الفلقْ !
والوجودُ الشهودُ القيودُ ..
تَضِجّ وحتى العبيدِ : صدقْ ..
وصدقْ .. وصدقْ .. وصدقْ ...

في دائرة الضوء

ماذا نعرف عن أمريكا ؟ !

بقلم : د .أحمد بن محمد العيسى

سؤال بمثل هذا العنوان يبدو ساذجاً .. أليس كذلك ؟ !
أمريكا بهذا الحضور

السياسي والاقتصادي والعسكري والإعلامي على المسرح العالمي لا يمكن أن
يجهلها أو يشكك في تفوقها أحد ، فالولايات المتحدة الأمريكية تمثل اليوم عنفوان
حضارة الغرب وتألقها ، فهي وريثة الاستعمار الأوروبي ، والمحافِظة على المصالح
الغربية في بقاع الأرض ، وبدلاً من الاستعمار العسكري المباشر ، جاء الاستعمار
الأمريكي بثوبه الجديد ، ثوب حقوق الإنسان و صندوق النقد الدولي وما يسمى
بالشرعية الدولية وقوانين الإرهاب و شبكة سي إن إن و جوائز أوسكار و مشروب
الكوكاكولا و وجبات ماكدونالدز السريعة و شبكات إنترنت للمعلومات ...

ولكن .. هل هذه الصورة التي تبدو شديدة الوضوح من الخارج تكفي لأن
تعطينا رؤية صحيحة عن الداخل ؟ هل يكفي أن نعرف ما يدور في داخل الدار من
خلال معرفة عنوانه ، أو من خلال معرفة ملابس الخارجين من ذلك الدار ؟

وللإجابة السريعة على هذا السؤال ، أقول : إن الصورة الحقيقية التي نملكها نحن
أبناء الصحوة الإسلامية عن أمريكا من الداخل ، تظل غير واضحة المعالم ، ضعيفة
التركيب ، مليئة بالتناقض ، لا تستطيع أن تستوعب التناقض الظاهر بين التفوق
والانحطاط ، بين التنظيم المؤسساتي والاضطراب الاجتماعي ، بين القدرة السياسية
على المسرح العالمي والسذاجة السياسية على المستوى الفردي .

وقبل أن نسترسل في توضيح مسارات الموضوع ، قد يقول قائل : وهل نحن
في حاجة إلى معرفة أمريكا من الداخل ؟ ! ألم تؤد ممارسات الفكر العربي خلال
قرن من الزمان في دارسة إلى الإغراق في التعلق بالنموذج الغربي ، وأخرجت لنا
مسوخاً فكرية وثقافية بعيدة عن عقيدة الأمة وآمالها ومصالحها ؟ ! .

نقول : إن الجهل باللاعب الأساس لا يؤدي إلا إلى الهزيمة أمامه ، فإما أن
تكون هزيمة مادية (عسكرية واقتصادية وسياسية) أو هزيمة فكرية ونفسية ، وذلك

عندما تتغلغل ثقافته وقيمه وأخلاقه عبر العديد من القنوات إلى عقولنا وبيوتنا ،
ونحن نحسب أنها من متطلبات التقدم الحضاري ، لقد رفع الفكر الإسلامي منذ
بدايات التحدي الغربي الكاسح للعالم الإسلامي شعار أن نستفيد من الحضارة
المعاصرة بما يتلاءم مع معتقداتنا وأخلاقنا ومبادئنا ، وأن نرفض ما يخالفها ، ولكن
هذا الفكر لم يستطع أن ينتقل خطوة أخرى لتجسيد هذا الشعار في أرض الواقع ،
لأننا لم نعرف الحضارة المعاصرة التي هي حضارة غربية بكل المقاييس بتفاصيلها
لكي نعرف ما يتلاءم و ما يخالف ، وقد أدى ذلك إما إلى اقتحام هذا الحضارة من
قبل أناس لم يعرفوا أولاً معتقداتهم وشريعتهم ، فانتقلوا إلى البحث والتنظير في ما
يصلح و ما لا يصلح ، أو إلى التوقف عند بعض مظاهر هذه الحضارة وإعطاء
أحكام ناقصة أو متحيزة .

إن تعاملنا مع أنفسنا ومع الآخرين ، ورؤيتنا لما يجري في هذا العالم ،
ومعرفة القرارات المصيرية التي تتخذ على أكثر من مستوى : سوف تتأثر بشكل
أو بآخر بمستوى معرفتنا بمن يحرك السياسات وينفذها سواء أكانت مباشرة أو من
خلف الكواليس .

إذن : فمعرفتنا بأمريكا ضرورية لكي نستطيع أن نفهم ما يجري حولنا ، ليس
في تعاملاتنا الخارجية فحسب ، ولكن أيضاً داخل حصوننا المشرعة للرياح ؛ ولهذا : فإننا نتوقع أن دراسة واحدة عن أمريكا أو اثنتين أو مجموعة من الدراسات لا
تكفي لتمنحنا القدرة على المعرفة ، بل نحتاج إلى جهود علمية كبيرة تكون جزءاً
من دراسة للحضارة المعاصرة بكل تفاصيلها وتبدأ من نقد مفهوم الحضارة ومفهوم
التقدم من منظور إسلامي ، ثم تنطلق لتجيب على أسئلة تتجاوز مجرد تحديد الواقع
إلى معرفة أسبابه وخفاياه ، بمعنى أن تتجاوز المعرفة مجرد ما هو موجود في
الواقع إلى طرح أسئلة : كيف ؟ ولماذا ؟ .. كيف وصلت أمريكا إلى ما وصلت إليه ؟ ولماذا تأخر الآخرون ؟ فلا يكفي
أن نقول مثلاً : إن أمريكا تمثل القوة العسكرية

الأولى في العالم ، ونبدأ نعدد في ترسانتها من الأسلحة النووية والتقليدية ، بل نبحث
في : كيف وصلت إلى هذه المكانة ؟ ولا يكفي أن نقول : إن الجريمة والعنف
والانحلال الأخلاقي تضرب أطنابها في المجتمع الأمريكي ، بل نسأل : لماذا وقع
هذا ؟ وكيف ؟

الأسئلة كثيرة عن أمريكا ، وأحسب أن إجاباتنا عنها ستكون كما ذكرت مغرقة
في الضحالة ، وهذه ليست خاصية لمن يتعامل مع أمريكا عن بعد ، مثل بعض
رموز الصحوة الإسلامية ومفكريها فحسب ، بل وحتى لأولئك الذين اقتربوا من
المسرح الأمريكي ، إذ إن معظم الذين تعاملوا بشكل أو بآخر مع المجتمع الأمريكي
من الدعاة والمفكرين والدارسين ، لم يستطيعوا أن يَنفذوا من حواجز كثيرة وضعوا
أنفسهم فيها أو وضعت لهم إلى التعمق في فهم المجتمع الأمريكي ، ومعرفة
خصائص تفوقه وخصائص انحطاطه .

فلو تأملنا في مظاهر شتى للحياة الأمريكية من الداخل وذلك من خلال رسم
سيناريو لبعض الأحداث التي قد تقع للمتعاملين مع المجتمع الأمريكي من دعاة
المسلمين وشبابها لاستطعنا أن نعرض لبعض الأسئلة التي لا يزال كثير منها دون
إجابة في أوساط الفكر الإسلامي المعاصر .

دعوة للتأمل :

فتأمل الأحداث التالية :

داعية يسافر إلى الولايات المتحدة لزيارة قصيرة ، يلتقي فيها بعض إخوانه
من المسلمين ، ويشارك في بعض الأنشطة الإسلامية هناك ، ماذا ستكون رؤيته عن
البلد الجديد ؟ ما هي مصادر معرفته عن ذلك المجتمع ؟ ، كيف سينتقل من مكان
إلى مكان ؟ ، ومع من سيتحدث ؟ هل ستتاح له الفرصة
للحديث مع أبناء هذه البلاد ، ليبلغهم برسالة الإسلام ؟ ... وتزدحم الأسئلة في رأسه : لابد أن في أهل هذه
البلاد من إذا سمع الحق اتبعه .. لابد أن فيهم جماعات قد أنهكتها حياة الآلة التي
يعيشون فيها .. كيف يصل إليهم ؟ ما هي أفضل السبل
للدخول معهم في حديث

ودي ؟ كيف يفكرون في المسلم الملتزم ؟ لابد أن وسائل الإعلام قد أفسدت نظرتهم
للإسلام .. ولكن ، هل يمكن لوسائل الإعلام أن تؤثر هذا التأثير على مئتي مليون
من البشر أو يزيدون ؟ ! كيف تأسست هذه الوسائل ؟ ، ومن يديرها ويوجهها ؟ هل
هي موجهة بالفعل ؟ أين حرية الإعلام وحرية الصحافة ؟ من يعطيها الضمانات
لكي تكون حرة ؟ ! كيف تتشكل العلاقة بين الهيئات القضائية والتشريعية والتنفيذية ؟ ألا يوجد عندهم كما هو الحال في واقع كثير من بلاد المسلمين أن يكون الذي بيده
الحل والعقد هو الخصم والحكم ؟ ! من يقدم له المعرفة ؟ من يملكها ؟ ..

شاب مسلم مهاجر اضطرته ظروف العيش والاضطهاد إلى الهرب إلى العالم
الجديد بحثاً عن الرزق والاستقرار ، ولكنه يحمل بين جنبيه هذا الكنز الثمين :
عقيدة التوحيد ، لا يريد أن يتأثر بما يسمع عنه من مظاهر التفسخ والانحلال في
ذلك المجتمع ، عند وصوله إلى ذلك البلد يصدمه احترام العاملين في المطار في
محطات القطار ، في الفنادق ، في الشركات للإنسان ، تعاملهم معه بلطف ونظام ،
بينما هو ربما ترك كثيراً من مظاهر الاستهانة بكرامة الإنسان ، والتعامل الفج مع
طلباته وحقوقه في بلده ، ولكنه بعد أن عاش بعض الوقت بدأ يشعر بثقل الغربة ،
لا يفهم التناقض الكبير في المجتمع الذي يعيش فيه ؛ التقدم التقني والمعلوماتي ،
والنظام المحكم في مجالات العمل ، والعلاقات التي لا مجاملة فيها بين الرئيس
والموظف ؛ لا تحيز في المعاملة لقرابة أو صداقة أو مكانة اجتماعية .. وفي نفس
الوقت الفراغ الكبير بعد ذلك ، عندما يحل المساء ، وينتهي يوم العمل : يشعر
بالضياع ! فهو لا يستطيع أن ينخرط كما يفعل الأمريكيون في صخب الحياة الليلية
وتفسخها ، يتجه إلى التلفاز ليسلي نفسه ، ويقضي بعض ذلك الليل الكئيب ،
عشرات القنوات التلفازية : قنوات للأفلام ، وقنوات للرياضة ، وقنوات للأخبار ،

وغيرها كثير ، تنبعث في نفسه العشرات من الأسئلة : كيف استطاعت هذه البلاد
أن تفرض نفسها على العالم ؟ ! .. كيف استطاعت أن تتحكم في مصير كثير من
بلاد المسلمين ، تستنزف ثرواتهم بالسعر الذي تريد ، وتصدر لهم ما تشاء بالسعر
الذي تريد ؟ كيف يعيش هؤلاء الناس ؟ ! ... يركضون ويركضون في النهار وفي
الليل ... كيف تستقيم أمورهم ؟ ! ، وكيف ينظمون حياتهم ؟ ! .. وكيف ...
وكيف ؟ ؟ ؟ ... لماذا كل هذا العنف والحب والرياضة والغناء في قنوات
التلفاز ؟ ! ما هذا السخف في عرض برامج تتحدث عن قضايا اجتماعية مقززة : الإجهاض ، الشذوذ الجنسي ، علاقات الأسرة المتفككة .. ؟ لماذا تشعر وأنت تتحدث مع الأمريكي أنه لا يفقه شيئاً خارج حدود دولته .. لا يهتم إلا إذا قُتل أمريكي واحد ، بينما يقتل العشرات والمئات يوميّاً في بلاد العالم الثالث ولا تجد من يخبره بها ! لماذا نتابع ونحن هناك في بلداننا إذاعات لندن ومونت كارلو وصوت أمريكا ، ونشاهد العشرات من قنوات التلفاز الغربية ، بينما لا يسمع الأمريكي هنا أي إذاعة أو تلفزيون من خارج أمريكا .. حتى من أوروبا ؟ ! من يحرك هذا المجتمع ؟ من يوجهه ؟ ! هل حقّاً أنه يُوجه أو يُحرك ؟ من يملك المعرفة ؟

رجل أعمال جذبته الإعلانات التي تبعثها وكالات الإعلام المتخصصة في
السفارة الأمريكية ، رحل يبحث عن فرص للتجارة .. دخل في علاقات مع بعض
الشركات للتصدير .. أخذته الشركة في رحلة للاطلاع على بعض منشآتها ومجالات
عملها .. لاحظ في البداية أن ترتيب الزيارة كان مخططاً بدقة في كل تفاصيله :
متى سيصل .. ومن سيستقبله .. ماذا سيفعل في اليوم الأول .. وماذا سيفعل في
اليوم الثاني .. وهكذا . وصل إلى هناك وأخذ يتحدث بلباقة ويتصرف وكأنه يدرك
كل ما حوله .. اطلع على بعض مصانع الشركة من الأجهزة الألكترونية ، وذهل
من حجم الإنجاز ، ودقة العمل ، وانضباط العاملين .. الجميع يعملون في هدوء
وسكينة .. لا يتحدث بعضهم إلى بعض إلا همساً ، لا تجد الأوراق على الأرض ،

ولا تجد أعقاب السجائر في كل مكان .. قسم المتابعة يراقب خطوط الإنتاج من
جهاز حاسب آلي كبير ، والشاشات تملأ القاعة .. اليوم الثاني : يدعونه إلى حفلة
ساهرة في فندق ضخم .. الجميع يلبسون ملابس أخرى غير تلك التي رآها في
الشركة .. وتدور أسطوانات الموسيقى ، وتدور كؤوس الخمر .. هل يجاملهم
ويجلس في هذا المكان الموبوء ؟ .. لماذا تغيروا هكذا ؟ ! لماذا أصبحوا بهذا
الصخب وهذه القذارة ؟ هل هذا تعويض عن يوم العمل حيث الجميع ملتزم
بواجباته ؟ .. يسير في اليوم الثالث في شوارع المدينة وحيداً .. يريد أن يتعرف
على المجتمع في هذه المدينة الكبيرة .. ولكن ، هل بوسعه التعرف على الناس من
خلال السير في الشوارع ؟ أخذته رجلاه إلى قلب المدينة .. ذهل من حجم
المتسكعين والفقراء ! .. كيف يعيش الناس هنا ؟ ، وكيف
تصلهم الخدمات الأساسية ؟ الأزقة ضيقة ووسخة ، والأطفال
يلعبون في أطراف الشوارع .. هل صحيح أن
تجار المخدرات يجدون في هذه الأماكن ثروتهم الحقيقية ؟ .. هل صحيح أن رجال
الأمن لا يدخلون هذه المناطق بعد منتصف الليل ؟ يذهب إلى ضواحي المدينة ،
فيجد التناقض الصارخ .. الجميع هنا يعيشون في بذخ واضح .. الفلل جميلة
والحدائق متناثرة .. والأطفال يلعبون في ساحات مصممة بشكل متناسق .. تبدو
المدارس نظيفة وحافلاتها جديدة .. المدرسون يخرجون في آخر اليوم الدراسي
لترتيب خروج الأطفال ، ولتأمين ركوبهم في الحافلات .. يصيبه الدوار فيعود إلى
الفندق ليلاً ، وقد أرهقه التجوال ، هل يستطيع أن يفهم هذه البلاد ؟ .. من يقدم له
المعرفة ؟ ! .

وتتعدد الأسئلة التي يمكن أن يطرحها المرء الذي يقدر له الله أن يعيش لوقت
من الزمن في أمريكا ، أما أولئك الذين يتعاملون مع أمريكا من الخارج ، مع الوهج
الإعلامي ، والسيطرة الاقتصادية والسياسية ، فلا شك أن الأسئلة ستكون مباشرة ،

وستبحث الأفئدة عن إجابات موثوق بها وغير متأثرة بذلك الوهج ، ستتسائل عن
القوى السياسية وغير السياسية في المجتمع الأمريكي .. كيف تشكلت ؟ ولماذا
برزت ؟ وكيف تم تحجيم القوى الشعبية الأخرى ؟ لماذا يتنافس حزبان فقط في
انتخابات الرئاسة وانتخابات مجلس الشيوخ ؟ كيف يسير النظام الانتخابي ؟ وما
هي القوى المسيطرة على صنع القرار ؟ ما هو دور الإعلام ، وما هي القوى
المسيطرة عليه ؟ وكيف وصلت إلى هذا المستوى ؟ ما هي القوى المهمشة في
المجتمع الأمريكي ؟ ولماذا أصبحت كذلك ؟ ما هو دور الجامعات ومراكز البحث
العلمي ومراكز الدراسات الاستراتيجية في صناعة التفوق العلمي والتقني ؟ وكيف
تتشكل تلك المراكز وكيف تمول ، وكيف تقوم بأعمال التخطيط والتنفيذ ؟ ما هو
دور الشركات الرأسمالية الكبرى ؟ ومن يمتلكها ؟ وكيف يكون نظامها ؟ وما
علاقتها بصانعي القرار على المستوى السياسي والاقتصادي ؟ كيف يتشكل النظام
القضائي ، والنظام التعليمي ، والنظام الإداري ؟ ما هو المستوى الثقافي لغالبية
الشعب الأمريكي ، وما هي اهتماماته ، وما هي وسائل الثقافة الاجتماعية ؟ من أين
جاء التفوق الأمريكي ؟ .. هل جاء من الثروة الاقتصادية ؟ أو من الثروة البشرية ؟
هل جاء بسبب كفاءة النظام السياسي ، أم كفاءة النظام التعليمي ، أم كفاءة النظام
الإداري ؟ وأخيراً .. ما هو مستقبل أمريكا في ضوء الحقائق الاقتصادية
والاجتماعية والسياسية الداخلية والخارجية ؟ وفي الوقت نفسه : ما هو مستقبل
الإسلام في أمريكا بعيداً عن التمنيات والتهويشات الإعلامية ؟ هل يعتبر الإسلام
حقاً من أكثر الأديان انتشاراً هناك ؟ ما هي الفرص المتاحة ولم تستغل ؟ وما هي
المعوقات ؟ وكيف يمكن تجاوزها ؟ ... وتستمر الأسئلة .. فمن يملك المعرفة ؟ !

وبعد هذه الأسئلة كلها ، لا نملك إلا أن نؤكد مرة أخرى على أن الجهل بما

يحدث في أمريكا سيقودنا إلى مزيد من الجهل بما تقوم به أمريكا من اندفاع لترتيب
وضع العالم بعد اختفاء القطب الدولي الآخر الشيوعية ويصبح المسلمون هم
الضحية مرة أخرى ، بعد أن كانوا ضحايا الاستعمار الأوروبي في بدايات القرن
بسبب الجهل بما يجري في هذا العالم من تطورات وأحداث .. ولو أعدنا قراءة
التاريخ الحديث لوجدنا أن المسلمين كانوا يُستخدمون بالآلاف لتنفيذ سياسات
الاستعمار دون أن يدركوا دورهم ومكانتهم من الأحداث ، فمن تجييش المسلمين
الهنود للحرب في العراق والشام ، ومن استخدام عرب الجزيرة للحرب ضد الخلافة
العثمانية فيما سمى بالثورة العربية ، ومن استخدام المسلمين من شمال إفريقيا
للحرب ضد الألمان في قلب أوروبا .. وهكذا .. وقارن بين ذلك كله وبين استخدام
أمريكا المسلمين اليوم للقتال معها في بقاع عديدة مثل : الصومال وهاييتي ، وفي
البوسنة والهرسك .. وغيرها .. كل ذلك يجري بسبب الجهل .. قاتله الله .

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ .

متابعات

منشأ النفاق ..

صالح السالم

كتب الدكتور محمد الوهيبي عن النفاق في عددين من مجلة (البيان) هما
(81 - 82) فأجاد وأفاد ، فجزاه الله خيراً .
ومشاركة في بيان منشأ النفاق وأصله ، أقول :
لم يكن للنفاق ذكر في مكة قبل الهجرة ، ولم ينزل فيه شيء فيما أعلم من
القرآن المكي ؛ فقد كان المسلمون مستضعفين لا شوكة لهم فلم يوجد المسوّغ لأن
ينافقهم أهل مكة ، بل يمكننا القول : إن النفاق لم يكن من أخلاق العرب ، وإن الذي
وجد في مكة هو خلاف النفاق ممن كان يظهر الكفر مستكرها وهو في الباطن مؤمن ، وحينما قربت وفاة أبي طالب طلب منه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يقرّ

بكلمة التوحيد ليحاج له بها عند ربه ، فلم يقلها ولو في الظاهر مجاملة لابن أخيه .
ولما حدثت الهجرة ودخل الإسلام في بيوت أهل المدينة بقي منهم أناس لم يرد
الله أن يطهر قلوبهم ، فشرقوا بالإسلام ووجدوا بعد بدر أنه لا مناص من إعلان
الإسلام في الظاهر ليسلموا وليبقوا على مراكزهم في قومهم ، وفي سيرة ابن هشام
قال : وانضاف إليهم [أي : اليهود] رجال من الأوس والخزرج ممن كان على
جاهليته ، فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك بالإسلام واتخذوه جنة عن
القتل ، ونافقوا في السر ، وكان هواهم مع يهود [1] .
فعلى هذا : كان نفاقهم مجاراة لإخوانهم من اليهود ﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ
الكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ ... ﴾ [آل
عمران : 72] أي : قال اليهود بعضهم لبعض : آمنوا أول النهار نفاقاً ومكراً
وتلبيساً على الضعفاء من الناس ، فإذا كان آخر النهار فارجعوا إلى حقيقة أمركم من
الكفر والتهود ، فتبعهم على ذلك ضعاف النفوس فنافقوا مثلهم ، وتعلموا منهم التقلب
والتلون ، وسلكوا مسلكهم وصاروا ﴿ وَإذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإذَا خَلَوْا إلَى
شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إنَّا مَعَكُمْ إنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ [البقرة : 14] .
فعلى هذا : فالنفاق من تعليم اليهود ومكائدهم ، ومنشأه منهم ؛ فهم الذين كانوا
قبل ذلك يظهرون متابعتهم لموسى وتمسكهم بالتوراة مع أنهم يبدلون كلام الله
ويغيرون الأحكام ويكتمون الحق ويحرفون الكلم عن مواضعه . فصلة المنافقين بهم
صلة قوية ، صلة الحميم بحميمه والأخ بأخيه ، صلة الدفاع والحماية والمشاركة في
السراء والضراء ﴿ أَلَمْ تَرَ إلَى الَذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإخْوَانِهِمُ الَذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
الكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإن قُوتِلْتُمْ
لَنَنصُرَنَّكُمْ ... ﴾ [الحشر : 11] مع أنهم ليسوا من اليهود في ديانتهم ولا منهم في أصولهم ، وإنما يجمعهم الهدف
المشترك وهو الكيد للإسلام فيتوالون عليه ﴿ أَلَمْ تَرَ إلَى

الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ [المجادلة : 14] ..
وبعد ذلك انتشر النفاق في المدينة وما حولها من الأعراب ، وجاءت التحذيرات منه ، وتوالت فضائح المنافقين في القرآن الكريم .
وذكر الكاتب في آخر المقال بأن الرافضة صنف من المنافقين لا يزالون عبر التاريخ يظهرون العداوة للأمة .
فأقول : نعم ، هذا دليل من الواقع على نفاقهم ، ودليل آخر هو : ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية ؛ حيث قال (رحمه الله) : فإن أساس النفاق الذي بني عليه هو الكذب ، وأن يقول الرجل بلسانه ما ليس في قلبه ، كما أخبر الله عن المنافقين أنهم : يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ .. [آل عمران : 167] ، والرافضة تجعل هذا من أصول دينها وتسميه التقية ، وتحكي هذا عن أئمة أهل البيت الذين برأهم الله من ذلك [2] ، وقد ذكر في مواضع كثيرة من كتابه منهاج السنة أن الرافضة أكذب الأمة ؛ من ذلك قوله : وقد اتفق أهل العلم بالنقل والرواية والإسناد على أن الرافضة أكذب الطوائف [3] ، وقوله : والمقصود هنا : أن العلماء كلهم متفقون على أن الكذب في الرافضة أظهر منه في سائر طوائف أهل القبلة [4] .
فأصل النفاق من اليهود وأصل الرفض من اليهود ؛ فمؤسس مذهب الرافضة هو ابن سبأ[*] اليهودي المنافق الذي دخل في الإسلام ظاهراً وبقي على يهوديته في الباطن ، لذلك ذكر الشيخ مشابهة الرافضة لليهود من وجوه عديدة ، فقال : قالت اليهود لا يصلح الملك إلا في آل داود ، وقالت الرافضة : لا تصلح الإمامة إلا في ولد علي ، وقالت اليهود : لا جهاد حتى يخرج المسيح الدجال وينزل سيف من السماء ، وقالت الرافضة : لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج الرضا من آل محمد وينادي مناد من السماء اتبعوه .. واليهود لا يصلون المغرب حتى تشتبك النجوم وكذلك الرافضة ... [5] .

وذكر كثيراً من أوجه الشبه بينهم ، بل إن أكثر الأمور التي خالفوا فيها أهل
السنة هي من تعاليم اليهود ، ونحن نسمع أدعيتهم في المطاف وغيره يثنون على
الله بما أكرم به موسى أكثر من ثنائهم على الله بما أكرم به محمداً ؛ وذلك لأن هذه
الأدعية أخذت من أدعية اليهود ، ومع ذلك فهم يتشدقون بإعلان البراءة في موسم
الحج من أمريكا وإسرائيل كذباً وزوراً وتضليلاً للناس ، وإلا فهم إخوانهم وتلاميذهم .

ومن هنا : يتضح أن الثلاث الأثافي اليهود والنفاق والرفض تحمل قِدراً واحداً
يغلي حقداً وعداوة وبغضاً وكيداً للإسلام والمسلمين ، فهل يتنبه المسلمون لذلك ؟ ! .

تتمة :

قد ذكر الكاتب أن النفاق الأصغر (العملي) قسيم النفاق الأكبر (الاعتقادي) .
لكنني أذكر بألا ننسى أن النفاق العملي إذا استحكم في الإنسان أدى به إلى النفاق في
القلب ، فعلى هذا : فهو سبب من أسبابه وليس قسيمه فقط ؛ يقول (جل وعلا) :
﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾
[التوبة : 77] .

فلنحذر جميعاً من النفاق والمنافقين حتى لا نقع في أحابيلهم .. والله من وراء
القصد .

---

(1) سيرة ابن هشام : ج2 ، ص135 .
(2) منهاج السنة : ج1 ، ص159 .
(3) منهاج السنة : ج1 ، ص13 .
(4) منهاج السنة : ج1 ، ص15 .
(5) منهاج السنة : ج1 ، ص7 .
(*) أنظر : كتاب عبد الله بن سبأ ودوره في الفتنة في صدر الإسلام ، د سليمان بن حمد العودة .

منتدى القراء

خطر تضخيم الذات الأجنبية

زهرة الإبراهيمي

يحرص بعض الآباء والأمهات على متابعة التلفاز مع أبنائهم للإشراف على
كل صغيرة وكبيرة تتعلق بمشاهدتهم لهذا الجهاز .

ولا يتساهل الوالدان في أحيانٍ كثيرة في مشاهدة أبنائهم لما فيه إخلال بالأخلاق والقيم الإسلامية ، وهذا في حد ذاته حسن . ولكن هذه المتابعة تخف درجتها بالنسبة للأفلام الحربية ، باعتبار أن أكثر عناصرها من الرجال ، وبالتالي : فهي تخلو من المشاهد الفاضحة أو المخلة بالآداب .

وما أريد التنبيه عليه هو : أن الخطورة لا تكمن في تلك المشاهد فقط ، فهذه الأفلام لها تأثيرها السلبي على شخصية النشء المسلم .. ويمكن أن نلخص هذه المخاطر في جوانب عدة :

أولاً : عدد كبير من هذه الأفلام هي أفلام أمريكية تصور الحرب في فيتنام أو في اليابان ، ويحرص المخرج خلالها على إبراز شخصية المجند الأمريكي الشجاع الذكي ! ، الذي لا يقف أمامه شيء ، ويبيد برصاصة واحدة آلاف الجنود الفيتناميين البلهاء كما يصورهم الفيلم ! ! مما يغرس الروح الانهزامية الخائفة التي ترى الأمريكي شخصاً لا يقهر ، وهذا خلاف الواقع المعروف ؛ لأن فيتنام كانت مقبرة حقيقية للأمريكان .

ثانياً : الطابع العام للأفلام الحربية يعكس حسن خلق المجند ، وكيف أنه يجمع القوة والرأفة ! ، ويعرض نفسه للموت في سبيل إنقاذ طفل أو عجوز .. وهذا بلا شك ينافي الواقع ، إضافة إلى أنه سيغرس علامة استفهام لا يستهان بحجمها في نفس الطفل .. فما دام هذا الشخص بهذا النبل وهذه القيم والأخلاقيات ، فلماذا نكرهه ؟ ! إنه أفضل من كثير من المسلمين .. وهذا بلا شك يزعزع مبادئ الولاء والبراء في نفوس الصغار .

ثالثاً : الترجمة العربية الحرفية لهذه الأفلام تحمل ألفاظاً سيئة وعبارات نابية من قبيل : (أيها اللقيط .. اذهب إلى الجحيم .. عليك اللعنة ...) .. وبمرور الأيام يصبح سماع هذه الألفاظ معتاداً لدى المشاهدين الصغار أو الكبار .

رابعاً : التأثر ببطل الفيلم ، وربما سمع البعض منا ابنه يقول له : أريد أن

أصبح مثل رامبو ! وهذا يقتل الاقتداء بالنماذج الإسلامية في نفوس الصغار .

خامساً : في حالة وجود امرأة في الفيلم ، نرى كيف أنها تصارع الرجال وتقتل وتنسف ، والملاحظ دائماً وجود امرأة واحدة في فريق عمل رجالي كأن النصر لن يتم إلا بها وهذه المرأة تحاكي الرجال وتماشيهم ، ولا شك أن هذا له تأثيره السيء وبالذات على الفتاة المسلمة في سن المراهقة .

سادساً : إلف الأطفال لسماع الموسيقى المصاحبة لأحداث الفيلم ، وهذه الموسيقى محرمة في ديننا كما نعلم .

هذا غيض من فيض .. وقليل من كثير من سلبيات هذه الأفلام ، فاتقوا الله أيها الآباء والأمهات ، فهؤلاء هم أبناؤنا .. (أكبادنا التي تمشي على الأرض) .

الورقة الأخيرة

وظلم ذوي القربى إلى متى ؟ !

أحمد العويمر

أن تشن الهجمات الظالمة ، والاتهامات المعلبة ، والنقد غير النزيه على الدعاة إلى الله بعامة ، والجماعات الإسلامية بخاصة من قبل اليهود والنصارى والماركسيين وأذنابهم الموتورين (اليسار العربي بشتى فئاته) ، والقول في الدعاة إلى الله من التجني والكذب والافتراء ما هو معروف مما يتقيؤونه ويسودون به الصفحات كل يوم ، كل ذلك معلوم ومنتظر ؛ والشيء من معدنه لا يستغرب .

أما أن يتطرق التشكيك في كثير من الدعاة إلى الله من قبل نفر من أهل الإسلام وممن يشار إليهم بالبنان ، فهذا ما لا يتوقع ولا يخطر على بال أحد لأسباب ، منها :

* أن الإسلام يدعو إلى التعاون على البر والتقوى ، وينهى عن التعاون على الإثم والعدوان .

* التعميم في الأحكام غير مقبول مع آحاد الناس ، فكيف مع الدعاة إلى الله ؟ !

* وهل خطر ببال أولئك الشانئين أنهم في خندق واحد مع المتربصين بالدعوة
بنقدهم هذا غير الموضوعي ؟
* الإسلام يدعو إلى الإنصاف حتى مع الأعداء ، فكيف مع العلماء والدعاة
﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ [المائدة : 8]
*وأخيراً ، فإن المطلع على نماذج من النقد المطروح يلحظ نقداً جيداً متميزاً
ولكنه قليل ، كما يلحظ الكثير من المبالغات والاجتهادات غير الموفقة التي لا تقوم
على أساس علمي ، وبعضها مما يسعه الخلاف ، ولا تستحق المعاداة والمفاصلة
بسببه .
وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند
لا شك أن حقل الدعوة إلى الله والعاملين فيه لا يخلو من أخطاء وسلبيات
وملحوظات في العقيدة والمنهج والسلوك ، غير أن حل تلك المشكلات وعلاجها ليس
بالفضح والتشهير ، وإنما بالرغبة الصادقة في الإصلاح والصدق في التناصح ثم
بعقد الندوات العلمية التي يجتمع فيها الدعاة للتدارس والتشاور بعيداً عن الحزبيات
والأنانيات والتعالم ، ليكون الهدف هو مصلحة الدعوة التي مبناها على أصول
الكتاب والسنة والتعاون على البر والتقوى ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،
والاعتصام بحبل الله وعدم التفرق .
الغريب أن يكون بعض أعداء الله أكثر موضوعية من بعض المنتسبين إلى
الدعوة ، فأولئك حسب ما ورد في الأخبار يراجعون خططهم في التعامل مع
الإسلاميين لأن مناهجهم القائمة على التعميم في الحكم غير صائبة ، فقد دعوا إلى
إعادة النظر فيها لأن العداوة للإسلاميين لم تنتج سوى نتائج سلبية كبرى عليهم
وعلى عملائهم .
فهل يكون النقد الموضوعي منا معشر الدعاة إلى الله لمصلحة دعوتنا وحسب
ما يمليه علينا ديننا ؟ أم تأخذ بعضنا العزة بالإثم بالإصرار على منهجه إياه مما

يشتت الصفوف ويوغر النفوس ، ويسهم في إضعاف آثار الدعوة ؟ !

إن كان الأول : فهذا هو المطلوب ، وإن كان الآخر : فوالله إن ذلك علامة سوء وظاهرة مرض كبرى ، نسأل الله السلامة والعافية .

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم ؟ !

تمت بفضل الله وعونه